

سَيِّدَةُ امْرَأَةٍ



لِيلَى

أَمِينٌ يَوْسُفُ غَرَابِ

سَعْدِ

أمين يوسف عز الدين

شباب امرأة

الكتاب الذهبي

مارس ١٩٦٣

الاهداء

الى السابع والعشرين من اغسطس عام ١٩٦١
الى امسية ذلك التاريخ ، التى قدر لها ان تكون بداية طريق
... ان كل طريق نسير فيه له نهاية
... وهذا الطريق لا نهاية له
... انه ليس طريقى انا
... انه طريقها هي ..
... وهذا شقاء ... وما من شقاء يعادل هذا الشقاء
.. شقاء من قدر له ان يسير فى غير طريقه

« امين يوسف غراب »

الطفولة..

الفصل الاول

قال لها هامسا ، وهو يتلصص بعينه على أمها التي تقف على عتبة داره في نهاية الحارة تتحدث الى أمه :

- تعالى نلعب ..
فلم تجب . وانما أشاحت بوجهها عنه كمن لا تريد أن تسمع . فاقترب منها خطوة .. وشدها من ذراعها وهو يقول بصوته الهامس الذي يفيض حنانا ورجاء يود تحقيقه :

- تعالى نلعب ..
فالتفتت اليه غضبي . وقالت وهي تنظر الى يده الصغيرة التي مازالت معلقة بذراعها :

- أنا مخصصك ..
- من غير ما سبب ؟
- اتهمتنى بسرقة الكرة ..
- اننى سألتك عنها ..
- لا .. اتهمتنى بسرقتها ..
- حقا على .. وغدا سأجىء لك بكرة غيرها ..
- من أين ؟

فقال وهو ينظر الى ذراعها الصغيرة التي ما زالت معلقة في يده :

- سمعت أبى يقول لأمى ، انه عندما يذهب الى السوق بعد غد ، فسوف يشتري له جوربا جديدا ، وعند ذلك سوف أخذ جوربه القديم وأصنع لك منه كرة جديدة .
فقالت وهي تنظر اليه .. ونور جميل يتألق في عينيها :
- سوف أصنع لك كرة من عندى .. فأبى يملك أكثر من جورب .. وأستطيع أن أخذ منها ما أشاء .

ومع انه لم يفتن الى شيء ، الا انها تداركت سريعا جملتها الاخيرة ، وما فيها من حرج له ، لذلك عقت ضاحكة ، وذلك النور الجميل ما زال يتألق في عينيها :

- تصالحنا ..
فقال فرحا :
- وسنلعب ..
- اسبقنى وسوف ألحق بك ..
- تعالى معى ..
- أعددت لك مفاجأة سارة . سأذهب لأحضرها .

فقال فى ابتهاج شديد :

- ما هى ؟

فنكست هديها الطويلين ، وهى تضحك ، وتضع أصبعها الصغيرة على غبازة فوق خدها المتورد ، وتقول ناظرة اليه :

- احزر ..

فقال مفكرا :

- كرة ؟

- لا ..

- تؤكل

- لا ..

- تشرب ؟

- لا ..

- ما هى اذن ؟

فقالت وهى تنسرق من أمامه ضاحكة ... تقفز فى خطوات عالية كالغزال :

- اسبقنى وسأحضرها لك ..

فانصرف تغمره فرحة كبيرة .. ووقف ينتظرها على رأس الحارة حتى تجيء ، ويذهب معها الى الجرن يلعبان مع الصبية على ضوء القمر فى رمضان ، الاستغماية - وجمال المالح - وحلقة ومضرب - الى أن تدق طبلة عم نوفل المسحراتى أولى دقاتها ، فينصرف كل الى بيته ، فرحا مبتهجا بما ظفر من هذه الليالى الجميلة من لعب .. ومرح .. ولهو برى .

وبينما هو فى مكانه مر به عم نوفل ، تسبقه عصاء السنط الطويلة ، التى تهديه دائما الى الطريق ، ففزع الصبى لمرآة . والصق جسده بالحائط فى الظلام حتى لا يشعر به . وقد انتابته حالة شديدة من الذعر ، وحالة أخرى من الالتمنان أو الرضا لا يدرى . فهو ان ظفر به عم نوفل الليلة ، حرمه من الاستمتاع باللعب مع سلوى فى الجرن . وان لم يظفر به ، حرم الصبى نفسه من بعض الطيبات التى تعود عليه فى الليالى التى يقود فيها عم نوفل فى أزقة القرية وحاراتها ، يدق على بيوت الناس ليوقظهم للسحور والصلاة التى هى عند الله خير من النوم .

وظل الصبى فى مكانه من الحائط حائرا لم يقطع بأمر . ينظر فى خوف أو رضا لا يعرف ، الى عصا عم نوفل الطويلة ، وهى تقترب منه ، متمنيا من قلبه أن تخطئه ، ومتمنيا أيضا

من قلبه أن تظهر به . بيد أن الأولى هي التي كان لها التفضيل
في نفس الصبي ، لأنه كلما رأى العصا تقترب منه وخطوات
عم نوفل المتعبة تدب إليه ، أطبق على شفتيه وأنصق جسده
بالحائط حتى ود لو أنه دخل في قلبه ، ولكن عم نوفل كانت
له حاسة شم قوية ، يستطيع أن يشم بها رائحة الناس
ويميزهم ويتعرف عليهم ، لذلك ما أن اقترب من مكان الصبي
حتى حول عصاه الطويلة الى الجدار الذي يختبئ الصبي
بجواره ، وقال على الفور :

- امام ؟

فاضطرب الصبي وتعالق دقات قلبه وهو يجيب سريعا :

- نعم ..

- أين كنت أمس .. وأول أمس .. وكيف تجعلني أبحث
عن غيرك ليمسك بيدي ويحمل عني الفانوس ؟
فتعلم الصبي وهو يقول :

- كنت أجود في جزئي عم ، وتبارك ، كما قلت لي ..

- أنت تكذب ..

فقال الصبي خائفا :

اسأل أمي ..

- أمك شقية بك ، وبلعبك طوال الليل في الجرن
وصمت عم نوفل لحظة ، ودق بعصاه على الأرض ثم قال :

- هل تريد أن أشكوك الى أبيك ؟

- لا .. لا .. انه يضربني ..

قالها الصبي في خوف شديد وهو ينظر إليه حتى لكانه يظن
أنه يراه .. فقال الشيخ :

- اذن ستسرح معي الليلة .

وأراد الصبي أن يطق .. ولكنه التفت فرأى سلوى تهل
على رأس الحارة من بعيد ، كما يهل القمر الوليد في الأفق من
بعيد فاضطرب ثانية وتعالق دقات قلبه ، وأحس بضيق شديد
وقال خائفا وعيناه معلقتان في عيني الشيخ الضريع :

- سأسرح معك الليلة وكل ليلة ، فقط لا تشكوني الى أبي .

- سأنتظرك في المسجد ..

نطقها الشيخ وانصرف ، تسبقه عصاه ، تبحث معه في الظلام
عن بيت الشيخ الشافعي مأذون الشرع ليقرا فيه بعض القرآن ،
الذي تعود أن يقرأ أيضا في بيوت غيره من أهل القرية طوال
شهر رمضان ، وفي غير شهر رمضان أيضا . فعم نوفل له في
القرية مكانة ملحوظة ، ويقوم فيها بأعباء كثيرة . فهو رغم أنه

كهل فى الستين من عمره ، ورغم أن الأيام أتت على كل شىء فيه ، ولم تبق من جسده الا ما يشبه الصورة القديمة التى تأكل اطارها وتسلك البلى الى رسمها . فهو مقوس الظهر معوج الساقين . ومع ذلك فهو فى القرية حركة نشاط دائمة ، لا تعرف الهدوء ولا الراحة ولا الملل . فهو فقيه المسجد الذى يؤذن فى الناس للصلاة . . . وهو الذى يؤم بهم الصلاة . . . وهو حانوتى القرية الوحيد الذى يغسل الموتى ويكفنهم ويتلو على رؤوسهم القرآن عندما يخرجون من الدنيا . . . وهو يتلوه أيضا كل صباح فى بيوت أهل القرية - بالمسانية - أى بالسنة ، نظير كيلة أو نصف كيلة من الحنطة أو الشعير كل عام .

أما اذا جاء رمضان ، فهو أيضا مسحراتى القرية الذى يجوبها كل ليلة بطبلته ، يدق بها على الابواب بابا بابا . ورغم أن هذا كان يجهد كثيرا ، الا أنه كان يسعده أيضا . وهو لا يسعده وحده ، وإنما يسعد معه جماعة كثيرة من النصيب والصبيات والعجائز الذين يقطنون معه دهليز « المرعشلى » . وهو دهليز كبير يضم أكثر من عشرين غرفة . . . أوقفها وأقفها على الفقراء الذين لا مأوى لهم من أهل القرية كما أوقف جناحا من هذا الدهليز على - خولى - زراعة الوقت يقطنه هو ومن يشاء من أسرته . وهو الجناح الذى يقطنه امام مع أمه وأبيه . وكان سكان هذا الدهليز جميعا ، اذا جاء رمضان وطلعت عليهم بشائره فى الافق ، غمرتهم فرحة لا حد لها ، وعاشوا جميعا فى هناء زائد وسرور مقيم . وذلك بسبب الصدقات الكثيرة التى كانت تنهال على عم نوفل فى رمضان ، وكان يوزعها على سكان الدهليز الذين كانت قلوبهم تكاد تطير من الفرح عندما يدخل عليهم نوفل بعد السحور حاملا جواله المكتظ بالخيرات ، ويفرغه امامهم على الارض فيلتفون حوله كالقطط الجائعة ، يستخلصون بأيديهم الصغيرة الجبن من العجوة ، ومخلل اللارنج والقثاء من البلح والجوافه ، والحبز الجاف من الكحك والمنين والغريبة وعظم الدجاج وقطع اللحم من رؤوس الفجل والكرات . وما الى ذلك كله من خير عميم ، يظهر الصبى منه بالنصيب الاوفر دائما .

فكر الصبى فى هذا كله سريعا وهو فى مكانه من الجدار يشيع الشيخ الضير ومرت به خيالاته مرورا سريعا كالتنور العابر ، فغمرته لذة كبيرة سال لها لعابه وود لو أنه سبق الزمن وانطوى سريعا هذا النصف الاول من الليل . ووجد نفسه برفقة الشيخ يحمل له الفانوس ، وهو يدق على الطبله ،

فتفتتح الابواب ، وتمتد الايدي الى الجوال بكل هذه الحيرات .
بيد أن هذا كله تلاشى فجأة ، وذاب كما تذوب قطرة الندى
تحت وهج الشمس . عندما التفت فرأى سلوى تقبل عليه
وهي تحبل له فانوسا اشترته له حتى يكون مثلها ومثل بقية
الصبية الذين يلعبون بفوانيس رمضان في الجرن ، بيد أنه
أحس عند رؤيته الفانوس في يدها بشيء كثير من الحجل ،
وأحس بهذا الحجل يتزايد وهي تقدمه له . . . وتقول في فرحة
غمرت وجهها كله وزادته بهاء .

– هذه هي المفاجأة التي أعدتها لك . .
ولما لم ترتسم على وجه الصبي الفرحة التي كانت تنتظرها
وأدركت بدكائها سرعيا سر خجله وارتباك . . قالت على الفور
.. مسترسلة في الضحك .. مستطردة في الحديث :
– سأقول لك السر .. فقط لا تنعه على أحد . .

– أى سر ؟
– خالتي آمنه – تقصد أمه – هي التي اشترته لك . .
وانكرته منك لانها غاضبة عليك . .
– لماذا ؟

– لانك لم تحفظ بعد جزء عم . .
فتهللت أسارير الصبي وهو يتناول من يدها الفانوس ،
ويشدها من ذراعها ، ويركض معها الى الجرن قائلا في ابتهاج :
– ان أمي لا تعرف شيئا . . لقد حفظت أيضا تبارك ، وقد
سمع ، والاحقاف ، وفصلت ، والزمر . . وعما قريب سأحفظ
نصف القرآن ، وأذهب الى طنطا والتحق بالمعهد الاحمدى .
سمعت أبى يقول ذلك .

ثم أراد أن يقول لها شيئا آخر . . ولكن ساحة الجرن الكبيرة
طالعتهما مكتظة ممتلئة بصبية القرية يحملن الفوانيس المضاة
ويركضن بها في ساحة الجرن الذي تراهي لهما من بعيد كساقية
فوانيسها من النجوم الباهرة التي تتلالا في الليل ، فوقها
بفانوسيهما ينظران الى مئات الفوانيس الاخرى في فرحة غامرة ،
وكل آمال الصبي والصبية أيضا أن يظل رمضان في القرية
طينة شهور السنة بل طيلة أيام العمر . حتى يدوروا في هذه
الساقية .

الفصل الثانى

لم يشعر الصبى فى حياته سعادة خالصة كهذه التى أحس بها هذه الليلة ، وهو يلعب الاستغماية مع صلبى فى الجرن ، يكر معها ويفر .. يركض ويقفز .. يراوغها وتراوغه .. يهرب منها بين الصبية حتى لتكاد تفتقده .. ويظهر لها فجأة من بين أرجلها فتأخذها المفاجأة .. وتقفز على كتفه حتى لا يهرب منها مرة أخرى ، ويلعب معها جمال المالح فيسير على أربع ويروح يقفز أمامها مغمض العينين كما يقفز الأرنب الضربى فى الفضاء ، وهى تطارده من أمام ومن خلف .. وتطارده عن شمال وعن يمين ، حتى اذا ما ضيقت عليه الحناق وأدخلته تلك الدائرة التى لا يجب عليه أن يدخلها قفزت كالفارس على ظهره وامتطته كما تمتطى الجواد ، ولفت به حول الدائرة سبع مرات . وكلما توانى ركلته فى فخذه أو ضربته على رأسه .. وهذا جزاء الذى يقع فى الدائرة .

وظل الصبى كذلك ناسيا كل شيء الا هذه السعادة التى هو غيبها . الى أن وقف فجأة مضطربا ، حائرا ، يستمع الى صوت طبلية عم نوفل التى تناديه . وينظر بصينية الى الفتاة التى تريد أن تواصل اللعب معه . ان شيئا ما يلح عليه أن يبقى .. وآخر يناديه أن يذهب .. انه قد وعد عم نوفل بالذهاب اليه هذه الليلة ، وهو يريد أن يبر بالوعد . لا من أجل تلك الصدقات التى سوف يظفر منها بنصيب .. وانما من أجل تلك الاجزاء الثلاثة من القرآن التى لم يحفظها بعد .. ويخشى أن يتسلسل خبرها الى أبيه عندما يعجز عن التفتيش ليلة الجمعة ، فيثور ويفضب .. وسوف يفضح سره عم نوفل ان هو أخلف وعده معه هذه الليلة ولم يذهب اليه .. وهو ان أذاع سره هذا فلن يذيعه فقط .. وانما سيذيع معه انه هرب منه أكثر الليالى التى مضت .. وسيذيع أيضا أنه سرق البيض من أمه واشترى به « حلالة طحينية » ومن يدري ربما لم يكتف بالحقائق فيضيف اليها أشياء ويختلق معها أشياء .. ويقول له مثلا أنه لم يحفظ بعد شيئا من تلك الاجزاء الثلاثة ، مع انه يعلم علم اليقين .. أنه يحفظ عم وتبارك عن ظهر قلب .. وان الذى ينقصه فقط فى جزء قد سمع هو التجويد ..

ونظرت الفتاة الى الصبى الذى توقف عن اللعب فجأة . والى عينيه المضطربتين وقالت فى دهشة :

- امام .. ما بك ؟

- لا شيء .

- هل تعبتي ؟

- لا .. فقط أريد أن أذهب الى عم نوفل ..

والفتاة تعلم مدى النفع الذي يعود على الصبي من مصاحبته
عم نوفل في هذه الليالي .. لذلك قالت له متلهة الوجه
مصطنعة الضحك والسرور :

- اذهب .. اذهب اليه ..

- وأنت ؟

- سألعب قليلا .. ثم أنصرف الى البيت ..

وكانه كان ينتظر منها أن تنصرف معه فقال :

- لقد دقت الطبله ..

فقالت ضاحكة وهي تتناول فانوسها من على الارض وتهم
باللحاق بالصبي الآخرين :

- بدرى ..

وأراد الصبي أن يقول لها شيئا آخر ولكنها كانت قد غابت
عن عينيه ، فانصرف الى المسجد حيث عم نوفل الذي التقى به
على باب المسجد ، يحمل جواله الذي صنعه على هيئة مخللة
علقها بحبل على كتفه ، كما علق الطبله التي كان يحملها على
صدره بحبل في الكتف الثانية . وأمسك بيده اليمنى عصاه
السنط الفليضة يندق بها الارض ، كما يندق بعضا أخرى صغيرة
أمسك بها في يده الثانية ، على الطبله . فاقترب الصبي منه
دون أن ينبس ومد اليه ذراعه الصغيرة ولفها على ذراع الشيخ
.. ومن ثم سار بجانبه ، يستمع كما يستمع كل ليلة الى
الشيخ وهو يردد مترنما بصوته الاجش المبحوح ، سجعاته
المعروفة المتكررة التي لا تتغير « يا سيد فلان يا أصيل الجدود
- ياللى العطا طبعك . وأصلك وجود » وكان كل من فى القرية
عند عم نوفل .. أصيل الجدود . وكانت لهم نوفل قدرة
عجيبة فى معرفة البيوت وأسماء سكانها . فما كان على الصبي
عندما يبلن أول الزقاق .. أو الحارة .. الا أن يقف به ويهمس
له باسم الحارة أو الزقاق فقط .. فيعرف هو على الفور بيوت
الحارة أو الزقاق بنتا بيتا . ويردد أسماء سكانها اسما اسما .
وهو يندق على الطبله مترنما سجعاته . ويظل كذلك ولو وقف
طول الليل .. حتى يفتح الباب .. ويخرج صاحب البيت أو
صاحبته أو أى انسان آخر ويتناول الصبي - ما يوجد - به
فيتناوله الصبي صامتا ويضعه فى الجوال ثم ينصرف الى بيت

آخر . . وكثيرا ما كان الشيخ يسأل الصبي بعد أن يغلق الباب ،
عن الذى وضعه فى الجوال فيخبره الصبي عن الصدقة التى
تصدق بها صاحب البيت او صاحبتة ، خيارة ، قطعة جبنة ،
قطعة عجوة ، كعكة ، شقة بطيخ ، وكانت قسمات وجه الشيخ
تتفرد وتنقبض وفقا لاجابات الصبي .

وظلا كذلك يسيران الى أن بلغا دوار العمدة ، وكان العمدة
يتناول سحوره هذه الليلة على المصطبة أمام الدوار ورأى الصبي
ما حفلت به - الطبلية - من طعام شهى . فهمس بذلك سريعا
للشيخ . وقد كان الاتفاق بين الصبي والشيخ أن يهمس له
الصبي بكل شيء . وما أن قال الصبي للشيخ ما قال حتى
تسمر الشيخ فى مكانه . . وقد تهلل وجهه وانفجرت أساريره
.. وتطلق جبينه المترهل . . واهتزت يده مرتعشة على العصا
وكانها ترقص طربا . . ومن ثم راح بصوته الاجش المبحوح
يرسل فى الليل عقيرته . متغنيا بسيد القرية ، بل سبيد
القرى جميعا وعمدتها الذى بعث الله به اليها ، ليهدئها من
ضلال ، ويخلقها من عدم . معددا مناقبه وأخلاقه وصفاته
وكريم سجاياه وأفضاله على الدنيا كلها . وحسناته على الناس
والخلق أجمعين . ثم راح يصف كسبه ورسمه وجماله . . ثم
أصله ونمسه وفرعه وسلالته التى تنتمى الى الانبياء والرسل
.. وظل كذلك حتى استنفذ الشيخ كل ما فى جعبته . ولم
يبق فيها شيء . يقال لأحد ولا حتى لله نفسه . وقد أثلج هذا
المديح صدر العمدة . . وملأ قلبه غرورا وكبرياء . . ومشاعره
لذة وابتهاجا . فلم يصر فيهما كالعادة سريعا بشيء . وجود عليهما
به من الذى حفلت به « الطبلية » امامه ، وإنما ظل يصغى الى
هذا المديح ويستمتع فى نشوة الى هذا الثناء وإلى أصله الكريم
الجدود . . وشجرتة التى أصلها فى الارض وفرعها فى السماء ،
وسلالته التى تتناول على الخلق أجمعين بانتسابها الى الانبياء
والرسل . حتى لعب الشيخ وتصيب العرق من جبينه المتجدد ،
وسال قنوات على تلك الاخايد التى أحدثها الزمن فى وجهه
وجول عينيه ، حتى بح صوته وخفت وغدا أشبه بمواء القطط
وهى تلف حولك وتبصبص لك بذنبها مستجيبة وتمسح بك
لتطعمها . ولما بلغ الشيخ هذا الحد من الإعياء ، وعجز صوته
عن أن يصل الى الآذان واضحا ، أشفق عليه العمدة اذ رفع يده
وأشار الى الصبي ، فترك الصبي الشيخ سريعا ، وقفز اليه كما
يقفز كلب الصيد الى القنص ، ولما مثل أمامه ، مد الرجل يده
اليه واعطاه ورك دجاجة سمينة كانت فى يده . فتلقها الصبي

غير مصدق ، ولما عاد الى الشيخ لم يضعها في الجوال كبقية
الصدقات الاخرى ، وانما حشرها في جيبه سريعا ، وحشر فوقها
ايضا ورقة صفراء خشنة كانت في يده وحشر هذه الورقة جيذا
وباحكام . وهو لم يفعل ذلك خشية على جيبه ان يتلوث ، وانما
حرصا على الا تنفذ رائحتها الشهية الى خياشيم الشيخ ، فيعرف
الحقيقة . ومن ثم تابط ذراع الشيخ وانصرف معه . وفي
الطريق ، وبعد ان ابتعدا قليلا ، ارتسمت على وجه الشيخ
هالة من نور ، وهو يلتفت الى الصبي قائلا :

— ماذا أعطاك سيدنا العمدة ؟

فقال الصبي في خبت وخوف وهو ينظر الى عيني الشيخ
المفلقتين وكأنه يخشى أن يرجع اليهما البصر :

— كسرة من الخبز وبعض من عظم الدجاج .

فتلاشت تلك البسمة التي كانت تتألق على وجه الشيخ
وقال مقطبا في تحسر شديد :

— لهم اللحم . ولنا الغظم .

فقال عم فضل السقاء ، وهو يقترب منهما لاهثا يحمل على
ظهره قربة ماء كبيرة ، وكأنه يحمل أعباء الدنيا وأثقالها فوق
ظهره :

— ولهم الدنيا ولنا الآخرة يا عم نوفل .

فابتسم الشيخ ابتسامة صفراء وقال في ضيق وهو يتمتم
بصوت خافت وكأنه يخاطب نفسه :

— ومن الذي اختار لنا هذا ؟

— استغفر .. استغفر يا نوفل .. وفي السماء رزقكم
وما توعدون .

نطق عم فضل هذه الكلمات في سرعة ردت الى الشيخ
صوابه ، وجعلته يظن الى ما قال ويكفر عنه سريعا . فحوقل
واستغفر وبسمل وهمهم بشفتيه وهو يتلو في صوت مسموع
« قل أعوذ برب الناس . ملك الناس اله الناس . من شر
الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من
الجنة والناس » .

قالها الشيخ وهو يمسح على شفتيه ويقول مخاطبا عم
فضل :

— صحيح يا فضل .. الخير فيما اختاره الله .

فقال الصبي للشيخ وهو يتحسس بيده الكنز الذي في
جيبه ويحشر فوقه الورقة مرة أخرى حتى لا تنفذ رائحته :

— عم فضل دخل بالقربة حارة الدناصورى .

فصمت الشيخ ولم ينطق ، وظل صامتا ، حتى بلغ به

الصبي نهاية الحائط ودخل معه الدهليز . فالتقى بالجوال في وسطه كما ألقى بجسده المتعب بجواره . وبعد أن استراح قليلا ، دس يده في قلب الجوال وأخرج منه بعض الطعام . أكل منه ما شاء ثم تركه كالعادة الى الذين يقطنون الدهليز ، فتجمعوا حول الجوال وتهافتوا عليه ينبشون بأظافرهم في قلبه ، كما تنبش الكلاب في صناديق القمامة تماما . وانصرف هو الى المسجد ، ليؤم بالناس صلاة الفجر . . أما الصبي . فقد اختفى عن الانظار حتى عن أمه ، وجلس بجانب الحائط من الحارة في الظلام وأخرج من جيبه ورك الدجاجة ، وهم أن يأكل ، بيد أنه تذكر شيئا ، أوقفه عن الاكل وجعل يده ترتد بالكنز الذي فيها .

حقيقة أن ملوى سوف لا ترحب كثيرا بهذه الهدية لانها تأكلها كثيرا ، وما من يوم يمر الا ويرى امام باب بيتها ريش الدجاج وعظمه ، وفي غير رمضان أيضا . وهي ربما ترفضها لانها لا تحب كبشات الاغنياء أن تشارك في طعام يتصدق به الناس . ولكن من يدري ربما لا ترفضها من يده هو ! وحتى لو رفضتها فسوف لا ترفض الاعتزاز بهذا الصنيع الذي هو غاية ما في طوقه ، وسوف تشعر بأنه يتذكرها دائما حتى في الشيء الذي يأكله . ولكن أين هي الآن ؟ هل عادت من الجرن هل نامت ؟ هل ينتظر الى الصباح ولا يأكل ورك الدجاجة الليلة ؟ أيبقيه معه حتى يلتقي بها ؟ وبينما هو يفكر هذا التفكير اذ بباب بيت الناظر يفتح ويخرج منه الاستاذ الشرنوبى ابو اسماعيل بطربوشه الاحمر القاني وجلبابه الابيض الناصع ، والققباب في قدمه في طريقه الى المسجد لصلاة الفجر جماعة ، وما أن اقترب قليلا ورأى الصبي حتى قال له :

— لماذا أنت وحدك في الظلام يا امام ؟

فقال الصبي وعينه ما زالت معلقة بالباب الذي خرج منه الناظر :

— كنت أصحب عم نوفل للمسجد .

فقال الناظر مداعبا وهو ينصرف :

— حسبتك ستصلى معنا الفجر .

ووجد الفتى نفسه يلحق به ويسأله : — هل ملوى نامت ؟

فقال الرجل مستطردا في مداعبته :

— وهل العفاريات تنام . ما زالت على السطح تلعب بحجة انها تنتظرنى حتى أعود من المسجد .

فغمزت الصبى فرحة لم يكن لينتظرها ورجع يركض الى الدهليز . وذهب الى السلم الحشبي الملقى على جداره من الداخل وراح يقفز عليه كما يقفز الارنب فى الليل حتى بلغ سطح الدهليز ومن ثم وقف يتلفت على سطح بيت سلوى الذى يجاور سطح الدهليز مباشرة ، وما أن رآها لاهية مستغرقة فى اللعب تقفز تلك القفزات السريعة التى يمر مع كل قفزة من تحت قدميها الجبل الذى تمسك بطرفيه فى يديها . حتى أشار اليها اشارات سريعة جدا كمن يريد أن يلفت نظرها الى أمر هام ، فتوقفت عن اللعب ، ووقفت فى دهشة تنظر اليه من بعيد . ولما عاود اشاراته السريعة لها ، أقبلت عليه . ولما لم يبق بينها وبينه سوى الحاجز الصغير الذى يفصل بين السطحين سألته متلهفة وهى تحاول أن ترى وجهه من "ألف الحاجز" ، فلا تستطيع :

- ماذا تريد .

فقال وهو يشب على قدميه ليراها . ويشير لها بيده أن تتبعه عند قبو الطاحونة وهو الذى ينتهى بالسطحين من الخلف وينتهى عنده الحاجز أيضا . وهى طاحونة مهجورة تدهم سقفا ، وتعود سكان الدهليز أن يحفظوا فيها الروث والنفايات الجافة والتبن الذى تأكله الماشية فى الصيف ، فازدادت دهشتها وقالت :

- لماذا ؟

- معى لك هدية حلوة . .

- ابقيا الى الصباح . .

- تحمض . .

ولما عرفت أن الهدية تؤكل تلاشت الابتسامة الخفيفة التى كانت قد ارتسمت على ثغرها ، وقالت وهى تهم أن ترجع :

- أنا تعشيت . .

- أرجوك . .

نطقها الصبى فى ذلة وفى رجاء ملح يشوبه ألم خفيف . استشعرته الفتاة وأحسبت به وأشفقت على الصبى من أن ترفض له طلبا يحزنه الى هذا الحد أن يرفض . فراحت تركض بجواره على السطح وبينهما الحاجز ، ويركض هو بجوارها فى الليل وكلما تحسب الكنز الذى فى جيبه غمرته فرحة لا جد لها . وكلما رأى الفتاة بجواره تركض ليتقاسم معه ورك الدجاجة .

ووقف الصبى أمامها يرتجف يريد أن يقول لها شيئا . . . بيد أن هذه السعادة تبددت فجأة ، أو لعلها تبددت بشئ آخر

لم يكن الصبي ليعرف أن له وجودا فى الحياة • فقد حدث أنهما عندما بلغا قبو الطاحونة سقطا معا فى قلبها ، كما تعودا أن يسقطا دائما فى قلبها وهما يلعبان غير أن سقوطهما هذه المرة جاء فوق كومة عالية من التبن انهارت بهما معا • فتعالى صراخهما الضاحك ، وصخبهما المرح ، وكل منهما يحاول أن يمسك بصاحبه حتى لا يسقط فوق الأرض • وكادت هى تسقط فعلا فمد يده سريعا ليمسك بها ويمنعها من السقوط • وما أف فعل حتى رد يده سريعا أيضا ولكن فى غضب وقد تجهم وجهه فجأة واربدت سحنته وهو يقول لها فى صوت خشن لم يتعود أن يخطبها به من قبل :

— أهكذا تكذبين على ؟

فانعقد لسان الفتاة دهشة وقالت فى استغراب شديد وهى تنظر اليه :

— أنا كذبت عليك يا امام •• وفى ماذا ؟

— تسرقين الكرة ، وتخفينها فى ثيابك ، ثم تدعين عيىم رؤيتهما •

فازدادت دهشة الفتاة الى حد كبير وهى تقول :

— أنا سرت الكرة يا امام ••

فقال الصبي فى غضب :

— أبوه ••

— من قال ذلك ؟

فنظر اليها مشيرا الى مكان ما فى الصدر وقال :

— اذن ما هذا الذى تخفينه فى صدرك ؟

ونظرت الفتاة سريعا ودون وعى الى المكان الذى يشير اليه وما أن رأت « الكرة » التى أخفتها فى صدرها حتى اضطربت أنفاسها ، واحمر وجهها خجلا وتوردت وجنتاها وغدت بلون الدم ، ولهت أنفاسها ، كما تعالت دقات قلبها فى سرعة شديدة ، وأطبقت شفثيها فلم تجب •

ورأى الصبي كل ذلك ، وظن أن اكتشافه « للجريمة » هو الذى أخزاعا كل هذا الحزى ، وهو الذى ورد وجنتيها حتى أحالهما هكذا الى هذه الحمرة القانية ، وعقد لسانها هكذا خزيا وخجلا واضطرابا • فقال وهو يتركها وينصرف الى باب الطاحونة الموصل للحارة ، والغضب ما زال فى عينيه :

— سأخاصمك •

فتمتمت الفتاة فى حرم شديد محاولة أن تحرك ساقيها التى خدرت وتسمزت فى مكانها لتلحق به :

- ١ ٠٠٠ ١ ٠٠٠ امام ٠٠

- لا تذكرى اسم امام ثانية على شفتيك ٠٠
وكانت قد لحقت به ٠٠ فوقفت مرتبكة جسدا ، محاولة
ما استطاعت أن تخرج نفسها من هذا الحجل الذى ألم بها ،
وهذا الاضطراب الشديد الذى يكتنف كل جزء فى جسدها .
وأخيرا استطاعت أن تنطق متممة فى صوت خفيض ملتهب
أحست حرارته تنساب كالسنة اللهب من بين شفتيها :

- أنا لم أسرق الكرة يا امام ٠٠

فالتفت اليها الصبى ، وقد ألمه أن تغالطه الى هذا الحد ،
وقال فى حدة وغضب :

- وتكذبين أيضا ؟

- ولم أكنب ٠٠

فقال متحديا فى غضب وثورة :

- أكسفك . وأمد يدي الى صدرك وأخرجها منه .

فاضطربت الفتاة فى خوف شديد ، وقالت متلعثمة تنظر
اليه ، ودقات قلبها أكثر خفقانا وأكثر عنفا :

- ان هذه ليست كرة يا امام ٠٠

فالتمعت عيناه فى الظلام وهو ينظر اليها فى غيظ ويقول
فى نفس السرعة التى مد بها يده الى صدرها :

- اذن ما هذه ٠٠

وما أن فعل حتى ارتدت يده فجأة ٠٠ مضطربة ٠٠ ترتعش
فى خوف وألم كأن أحدا ضربه عليها ضربة موجعة . ومرت
به لحظات فقال راح فيها يلهث وهو مغمض العينين ، وقد أحس
بدوار شديد جعل جسده كله أشبه بدوامة تلهث فيها
أحاسيسه ويغلي فيها دمه ، وتصطرع فيها عواطفه ٠٠ ويختلط
بعضها ببعض فى عنف وقسوة .

ووقف الصبى أمامها يرتجف يريد أن يقول لها شيئا ٠٠

يريد أن يعتذر لها عن هذا الجرم الذى ارتكبه ٠٠ عن هذه
التهمة التى اتهمها بها ٠٠ يريد أن يقول لها شيئا آخر غير هذا
كله ٠٠ ويعتذر لها عن شيء آخر غير هذا كله ٠٠ يريد أن
يتحدث اليها عن يده هذه التى « تطاولت » دون قصد ٠٠
ولكن هل لأبد ان يعتذر ٠٠ الا يكفى كل هذا الذى يعانیه ،
الا تكفى هذه النار التى حرقتة ٠٠ هذه الدوامة التى يصطرع
فيها كيانه كله الآن ٠٠ الا يكفى كل هذا ؟؟ وهل اذا اعتذر
لها سيقول لها كل شيء ، ثم ما هو هذا الشيء الذى سيقوله
لها ٠٠ يعتذر لها عنه ٠٠ انه هو نفسه لا يعرفه ٠٠ انه يحس

به فقط .. ويحس به أشبه ما يكون بثعبان كبير يستيقظ ويتأهب ويتعطى. في جسده فيشد معه الجسد كله شدا عنيفا الى شيء مجهول .. شيء جعله فجأة انسانا غير الذي كان .. انسانا يزيد عن عمره بسنين طويلة . يزيد عن قوته بقوى اخرى هائلة .. انه الآن أشبه بمعلق يستطيع ان يفعل كل شيء . وان يطبق على كل شيء . وأن يحطم ايضا كل شيء فهل يقول لها هذا .

هل يتحدث اليها به أم يتحدث اليها عن شيء آخر يعانیه الآن .. هل يحدثها عن لسعات هذه النار التي تلدغ كل كيانه حتى لتكاد تشويهه .. تحرق احاسيسه حتى لتكاد تحيلها الى رماد .. تعض جسده حتى لكانها ناب الثعبان الذي يتمطى في كيانه ..

ولكن ما هو هذا الشيء الذي له كل هذه القوى .. كل هذا السحر ؟ فيه هذه النار .. وفيه أيضا هذا النور .. فيه الضعف والقوة .. فيه الرضا به والسخط عليه .. فيه الشوق اليه والخوف منه .

وهل هي أحست به أيضا ؟ هل تعرفه ؟ هل ألم بها كما ألم به الآن ؟ هل تفتحت له احاسيسها في نشوة كبيرة .. كما تفتحت لها احاسيسه في نشوة كبيرة .. ام حرقتها ودمرتها كما حرقته الآن ودمرته ؟؟

مرت به كل هذه الاحاسيس سريعا وهو ما زال بجوارها مغضض العينين وذراعه التي تؤلمه مدلاة بجانبه أشبه ما تكون بثعلب صغير ميت علقه في كتفه .. ولما رآته كذلك أشفقت عليه وجاهدت نفسها حتى أزاحت عن وجهها المتورد وعينيها المحمرتين بعض الحجل الذي وان عليهما .. وحركت شفثيها في جهد لا حد له وتمتمت بصوت خجول جدا .

— امام ..

ولما لم يجب استطردت :

— أنا مسامحك ..

وهم هم الآخر أن يفتح عينيه . ويجاهد نفسه ليقول لها شيئا . ولكنه سمع غيره يقول لها :

— أما زلت ساهرة ؟

فارتمت الفتاة في أحضان والدها وهي تقول ضاحكة :

— كنت أنتظرك حتى تصلي الفجر .

فقال الشيخ نوفل الذي كان يتوكأ على عصاه ويسير بجواره ، وكأنه يتم حديثا بداه :

- وإنشاء الله الإقامة ستكون في مصر نفسها ..
- طبعاً ما داموا قد نقلوني إليها .
- ومتى السفر إنشاء الله ؟
- أغلب الظن غدا .. أو بعد غد ..
- فقال الشيخ الضرب في الم وهو يدخل معه الحارة :
- ستعيش القرية حياتها تذكر ابنها البار .. فهل ستتذكرها أنت .. يا أستاذ شرنوبى .
- وهل ننسى الأهل .. والذكرى الطيبة يا شيخ نوفل .
- وكادت تدمع عين الشيخ نوفل وهو يصفحه وينصرف الى الدهليز ، كما انصرف الأستاذ الناظر وابنته سلوى الى البيت .

الفصل الثالث

كان الصبي فى الظلام يصغى
الى هذا بانتباه . ثم انصرف هو
الآخر . . ولكن الى أين ؟ لا يدري .
همل انصرف الى الدهليز ونام فى الحجره مع أمه التى
تشكو داء الكبد وتعانى من آلامه ما عجزت عنه وصفات القرية
جميعا . وعجزت عنه أيضا تذكرة داود التى يحفظها عن ظهر
قلب الاسطى شلبى - حلاق الصحة - أم نام الصبي فى تلك
الليلة فى مكانه خلف جدار الطاحونة ؟ وهل نام نوما هادئا . أم
ظل نائما ليستيقظ أو مستيقظا لينام ؟

وهل داعبته فى النوم تلك الاحلام المزعجة المخيفة التى مرت
به وهو نائم . . أم هو لم ينم وانما ظل مستيقظا . . يصغى .
بانتباه الى ذلك الحديث القصير الذى دار بين الرجلين والذى كان
لمعانيه والفاظه فعل النار فى أذنيه . . انه لم يذكر أبدا شيئا
من هذا كله وانما الذى يذكره جيدا انه بعد صلاة العصر فى
اليوم الثانى وهو فى المسجد يجلس أمام الشيخ متربعا بجوار
المنبر يهتز ويميل ذات اليمين وذات الشمال ويده على صدغه
وهو يتلو ويجود السورة الأخيرة من (قد سمع) ، اصطدمت
يده بشئ كان فى جيبه . . ولما تبينه بعد أن خرج من المسجد
وجده ورك دجاجة أزرق اللون يتصاعد منه رائحة عفنه كريهة
ومد يده وألقى به لكلب كان يسير بجواره فى الطريق . . ومن
ثم واصل السير . .

ودلف سريعا الى الدهليز ودخل الحجره التى تنام فيها أمه
. . ولما لم يجدها اقتحم بابا صغيرا يفصل بين الحجره
و « التعريشة » وهى خلف جدار الدهليز بجوار الطاحونة . .
ذات أربعة جذران مجدولة من أعواد الحطب والبوص وعيدان
الاذرة ، وسره أنه رأى أمه معافاة متمالكة قواها ، وقد علفت
الجاموسة واشعلت الكانون ووضعت القدر عليه . . وشمم
الصبي رائحة البخار التى تتصاعد من القدر . . ونظر فى داخله
فرأى بعض حوافر الماعز وأرجلها تتناهبها النار فى قلبه ،

تفوصى حيناً وتطفو أحياناً • فتذكر ان اليوم يوم الخميس ،
وهو اليوم الذى يجيء فيه أبوه من التفتيش ليبيت معها فى
القرية تذكر الصبى كل هذا وطرب له ، وزاده طرباً هذا الاهتمام
الزائد الذى تظهره أمه دائماً فى كل مناسبة لابه • لذلك قال
لها فرحاً وهو يرمى فى أحضانها كطفل :

- لماذا لا تريحين نفسك وتكلفيننى ببعض هذه الاعمال ؟

فقالت ضاحكة وهى تربت على كتفه فى حنان :

- لو أنك فتاه لعلمتك كيف تحلب الجاموسة وتجلس أمام
الكانون ، وترتقى لى ولأبيك الثياب • ولكنك رجل •
فقال الصبى ضاحكاً وهو يقبلها عند كتفها :

- وبماذا يكلف الرجل ؟

- أن يحفظ القرآن • • ويذهب الى المعهد • • وينال الشهادة

ويصبح « خوجه » كما نريد له أمه ، ويتمنى له أبوه • •

فقال فى مرح وهو يقطب ويقفل ما بين حاجبيه مداعباً :

- اننى أقصد الآن • •

فقالت وهى تنحيه بعض الشيء وتمسك بملعقة كبيرة من
الحشيش وتديرها فى قلب القدر :

- أريدك ان تذهب الآن الى بيت عمك الناظر • •

لتشحت لنا من خالتك الست صبرية رأساً من الثوم • •

فنهض الفتى سريعاً ليقوم لأمه بهذه المهمة • • بيد أنه عند
الباب تذكر شيئاً فوقف متردداً • • وكاد ان يرجع ثانية لولا
أنه وجد نفسه أمام بيت الناظر يدق بيده على الباب دقات تكاد
لا تحدث صوتاً ولا يكاد يسمعها أحد ومع ذلك فقد سمعتها
الست زوجة الناظر التى فتحت الباب وقالت مبتهجة للصبى
عندما رآته :

- امام تفضل • •

نسى الصبى الشيء الذى جاء من أجله ووجد نفسه يسأل
مرتبكاً وهو يمد نظراته المضطربة • • ويتسلل بها خلصة داخل
الدار :

- اين سلوى ؟

فقالت الست صبرية فى ابتهاج شديد وهى تمد يدها الى

الशल القطيفة الاحمر الذى على رأسها ٠٠ وتغطى به شيئا كان
قد لاح عند الكتف :
- ذهبت مع عمك الناظر الى مصر ٠٠ لترى البيت الجديد
الذى سنقطنه هناك ٠٠

فانعقد لسان الصبى فجأة ٠٠ وتعالق دقات قلبه حتى
فاضت على أذنيه فلم يسمع جملتها الاخرة وهى تقول له بأنها
ستعود الليلة ٠٠ بيد أنه بعد جهد تمت فى صوت خفيض جدا
ووجهه الى الارض :

- أمى تريد رأسا من الثوم ٠٠

فظننت المرأة الطيبة القلب ان هذا الطلب الصغير هو الذى
أخجل الصبى واربطه الى هذا الحد ٠ ولا سيما وانها تعلم عنه
أنه كثيرا ما يرفض ان يطلب شيئا من أحد ٠٠ وكثيرا ما كانت
تقدم له وهو يلعب مع سلوى بعض الحلوى ٠٠ فكان يرفضها
ولا يقبلها الا بعد الحاح ، لذلك تعمدت الابتهاج والترحيب
وتركته سريعا ولم تمكث غير قليل حتى عادت وهى تعمل فى
يدها عدة رؤوس من الثوم ناولتها له وهى تقول :

- اتفضل ٠٠ غالى والطلب رخيص ٠٠

فلم يلتفت الصبى الى هذا القول ٠٠ ولم يشكرها أيضا على
هذا الفضل وانما وجد نفسه يسألها هذا السؤال الذى اضحكتها
كثيرا :

- هل المسافة من هنا الى مصر بعيدة ؟

فقالته ام سلوى ضاحكة فى سذاجة وهى تربت على كتفه

- ان مصر لا تبعد أبدا على حبيب ٠٠

الفصل الرابع

أقبل المساء فى ذلك اليوم سريعا
جدا أكثر مما كان ينتظر له الصبى ان
يقبل .. واقبل معه والده متعبا
مكدودا يحمل على كتفه خرجا كبيرا
امتلات احدى عينيه بكيزان الذرة الجافة وامتلات العين الاخرى
بحبات الشعير المخلوطة بالحلبة .. وثلاث اقات من الخیار
« الصيفى » الذى يميل الى الصفرة دفنت جميعها فى عين الخرج
التي يحملها الرجل على صدره ما عدا خيارة واحدة بقيت على
الوجه اكل نصفها وبقي النصف الاخر ملوثا تنطبع عليه ثلاث
نقاط سوداء تكاد تكون ثابتة ولكنك لو تأملت قليلا لوجدتها
ثلاث ذبابات تأكل فى قلب الخيارة ولعلها رافقت الرجل من
اول الطريق ..

وما كاد يخترق الدهليز ويدلف الى الحجرة ، حتىلقى
بالخرج لاهنا وقعد بجواره محاولا فى عناء شديد ان يسترد
بعض أنفاسه ليحيى زوجته بكلمة ولكنه لم يقدر . ونظرت
اليه آمنة ورأت وجهه المصفر وعينيه الفاثرتين وعنقه الذى يهتز
بين عظمتين بارزتين فوق الصدر . وكأنها اشفقت على الرجل
من كل هذا العناء .. فبالت وهى تنظر الى الخرج وكأنها تنظر
الى شيء بفيض :

— أفى هذه السن وهذه المتاعب وهذا الشقاء كله وتحمل
هذا الخرج على كتفك وتسير به ثلاث ساعات على قدميك .
وكان الصبى فى هذه اللحظة قد دلف الى الحجرة وارتمى
فى أحضان والده الذى نسى كل شيء الا فرحته بلاقائه وقال
وهو يمد يده الى طرف ثوبه ويحفف به العرق الذى ما زال
يتصبب من جبينه ، ويتساقط على عينيه :
— كان لابد لى من ان أجىء فقد بلغنى نبأ سار فرحت له
كثيرا .

فقال آمنة وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة .
— خيرا .. ان شاء الله ..

— بلغني أن امام أتم حفظ الواجب .. وسوف يؤهله هذا
لدخول المعهد هذا العام ..

فقال الصبي على الفور وهو يعانق والده ويلقى بذراعيه
الصغيرتين حول عنقه :

— واليوم أيضا انتهيت من تجويد كل ما حفظت من القرآن ،
ولم يعجب هذا الحديث الام ، ولم تطرب لهذه الانبساء .
ولذلك قالت وهي تتحسس وجهها وتتناول الطبلية من جوار
الحائط وتضعها بينهما :

— حسبتك ستقول غير هذا ..

فقال الاب :

— ألا يسرك أن ترى ابنك يحفظ القرآن ويحمل الشهادة
ويصبح خوجه كنوجات مدرستنا الذين ينعمون بالمنصب
والجاه .. ويتمتعون ببسطة في الرزق يا آمنة ..

فقالت ضاحكة وهي تمد يدها الى قلب القدر وتفرغ ما فيه
في طبق كبير من الفخار كان امامها على الطبلية :

— لو كان الامر بيدي ، لفضلت له أن يذهب معك الى الحقل
ويحمل عنك بعض العناء الذي تقاسيه ، والا لماذا يجيء الآباء
بالابناء ان لم يحملوا عنهم بعض العبء يا بلتاجي ..

فتنفض وجه الرجل ، ولمت عيناه ، وتدهورت منهما سريعا
بعض نظرات قاسية حمراء .. وقال وكأنه يلفظ أنفاسه مع
ما يقول :

— انك اذن تحكمين عليه بالموت يا آمنة .. فلو أن أباه لم
يكن جاهلا ، وكان يعرف حتى كيف يفك الخط لتغير مصيره
.. وكان الآن على الاقل في التفتيش كاتبا للشفالة بثلاثة
جنيهاً بدل الجنيه والنصف الذي لم يزل واقفا منذ عشرين
عاما .. والذي منذ عشرين عاما أيضا يكاد يقتلني الخوف عليه
ان ينقص ، أو يمسه القدر بسوء ..

— انها أرزاق يا بلتاجي ..

— ولكنها لم تكن عادلة يا آمنة ..

— استغفر .. استغفر يا شيخ .. لم يعد في العمر بقية
وكل ما يأتي به الله خير ..

فتمتم الرجل مستغفرا • وهو يتناول قطعة من حافر الماعز ويلوكها بين شديقيه •• وما ان استشعر لذتها حتى تطلق وجهه ، وارتسمت قرحة كبيرة في عينيه وهو يأكل ويقول للصبي الذي يأكل معه صامتا :

— لو انك كنت تحبني حقاً لدعوت لي ربك ان يمد لي في العمر ويبقى لعيني هذا البصيص من النور ، حتى أراك «خوجه» في مدرسة قريتنا ترتدي الكاكولة • والقفطان •• والجورب والحالة الاستك ••

وكان الصبي أراد ان يقول شيئا يطمئنه به أو كأنه أراد ان يعده بتحقيق هذا الرجاء • ولكنه قبل أن ينطق كان باب الحجر قد فتح وظهرت منه عصا الشيخ نوفل الطويلة وما ان تخطى العتبة وشم رائحة الكوارع حتى قال :

— مساء الخير يا بلتاجي ••

ثم هو لم ينتظر حتى يرد عليه الرجل تحيته بل واصل حديثه قائلا :

— كيف تأكلون الكوارع خلصة ، ولا تدعون اليها حبيبها المتغنى بها أثناء الليل وإطراف النهار ••

فقال الرجل ضاحكا وهو يفسح له مكانا بجواره :

— حمائك بتحبك يا نوفل ••

فقال الشيخ ممتعضا وهو ما زال في مكانه :

— أنزل الله عليها وإبلا من غضبه • لا تذكرني بها يا بلتاجي فقالت آمنة ضاحكة :

— ياشيخ • لقد ماتت من خمسين عاما • حرام عليك ؟

فقال الشيخ وكأنه يدفع قوله بعصاه التي يدق بها الأرض :

— عشت معها خمس سنوات ، وماتت من خمسين سنة • ومع ذلك ظلت ذكرها السيئة يا آمنة تماما كالعقرب يموت وذيله ما برح باقيا •

فقال بلتاجي وهو يكاد يستلقي من الضحك :

— حرام عليك •

ثم استطرد بعد أن فرغ من الضحك :

— اجلس .. اجلس .

فقال الشيخ جادا :

— بل انهض انت .

— خير ، لماذا .

نذهب الى بيت الاستاذ الشرنوبى لتودعه مع المودعين سيرحل
الليلة مع أسرته فى قطار الليل ..

وأحس الصبى فجأة بشيء من الخوف . وهو يسأل دون وعى :

— الليلة ! وهل رجع من مصر .

فقال بلتاجى الذى كان يجهل كل شيء :

— تقصدون الاستاذ الناظر .

فقالت آمنة فى تحسر :

— نقلوه الى مصر ، وحرمونا منه ومن أسرته وخلقه الطيب .

فقال بلتاجى فى حزن شديد وهو ينهض سريعا :

— كيف حدث هذا . كيف سنحرم منه ؟

فقال الشيخ نوفل وهو يخرج مع بلتاجى ويخترق معه ظلام
الداهليز .

— أرادة الله يا بلتاجى .

— ولكن كيف حدث هذا يا نوفل .

فقال الشيخ ملتاغا فى غم شديد :

— كما يحدث دائما لهذه القرية المنكوبة يا بلتاجى .

يمر عليها الخير ولكنه لا يلبث فيها .

وصمت الشيخان ولكن الصبى الذى كان يسير خلفهما فى
الظلام قال متسائلا :

— وهل هناك قطار يذهب الى مصر فى الليل ؟

فقال الشيخ نوفل وهو يتحسس عتبة الداهليز بصاه :

— وحتى لو لم يكن يا بنى . فثق ان الله يخلقه سريعا . طالما

فيه خير سيذهب عنا .

فقال بلتاجى :

— ولماذا يجزيانا الله هذا الجزاء . يا نوفل ؟

— من أعمالكم صلت عليكم •
ثم اقترب منه ومد شفثيه الى أذنه وهو يهمس اليه في الظلام:
— العمدة من ثلاثة أيام اشترى عشرة أفدنة اضافها الى
الاربعين التي عنده ، وأمس وبعد ان نبح صوتي ، وجف لساني
وانا اعدد أفضاله ومناقبه تصدق على بعظمة دجاجة •
فارتعش الصبي الذي كان يصغى الى هذا الهمس وقال وهو
يشد كم الشيخ وينظر الى الحارة التي غصت بأهل القرية الذين
جاءوا لتوديع الناظر :
— صه • العمدة أمامك •

وكاد الشيخ أن يسقط خوفا وذعرا لولا أن العمدة الذي
لم يسمع شيئا قال في صوته الجهورى الذى يميز من بين مئات
الاصوات :
— سلامات يا شيخ نوفل •

— سلمت ودمت وبورك وعوفيت يا سيدنا وتاج راسنا •
ثم عمل بلسانه سريعا بين شفثيه المضطربتين وقال :
— دائما سيأق للخير ، ستحفظ لك القرية جميعها هذا الفضل
الكبير ، فضل سعيك على قدميك لوداع رجل بار كالاستاذ
الشرنوبى أبو اسماعيل •

واقبل ذلك الجمع الكبير يتقدمه العمدة على بيت الناظر حتى
غصت به مندوته الفسيحة • فرخب بهم شاكرا لهم جميعا هذا
الفضل الكبير ، كما راح الجميع يثنون على مناقبه ويتحدثون
عن أفضاله الكبيرة على النشء وعلى أهل القرية جميعا • ثم
وقف الاستاذ فتوح مدرس الخط بالمدرسة وألقى قصيدة بحصماء
عدد فيها مناقب الناظر : ولم ينس أن يثنى فيها على العمدة
أيضا ويعدد مناقبه ويذكر اياديه البيضاء على القرية جميعها
مما جعل العمدة يثني عجباً وفخراً • الى أن اقتربت الساعة من
الثانية عشرة فأقبل حنطور العمدة على الحارة لينقل الاسرة الى
محطة الدلتا فى القرية ، أما الناظر فقد سار وسط الاهل جميعا
الذين جاءوا لوداعه عن يمينه وشماله العمدة والشيخ مأذون
الشرع ، واللاوسطى شلبى حلاق القرية ثم الاساتذة أهل العلم
والفضل والادب من المدرسين فى مدرسة القرية • الى أن بلغ

الركب المحطة • وجاء القطار الذي اقبل بشعا كريها اشسبه
ما يكون بثعبان ضخم يزحف على بطنه في الليل • فاضطرب
الصبي الذي كان وحده دون المودعين جميعا يقف واجما في ركن
قصي خلف كشك المحطة ، ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، يمد
نظراته في وجوه الناس جميعا • ويشب على قدميه حيناً آخر
وكانه يريد أن يرى شخصا معيناً بالذات • ولم يكد القطار
يقف حتى لفظ خليطا من الناس ، ثم ابتلع في نفس السرعة
خليطا آخر ، وكان من بين الذين ابتلعهم الاستاذ الشرنوبى أبو
اسماعيل ، والست صبرية زوجته • وابتنتها الصغيرة سلوى
وكما اقبل القطار بشعا كريها يزحف على بطنه في الليل
ويرسل صفيره الذي يشبه عواء الكلاب الضالة • انصرف أيضا
بشعا كريها يزحف على بطنه في الليل وهو ينمق كالبومة • ولم
يدر الصبي لماذا تعلق عيناه به ، وطلبت معلقة في اذنيه حتى
تلاشى • واصبح القطار الضخم في عينيه اشبه بالذبابة التي
تتناهبها في الليل عاصفة هوجاء • فوقف صامتا وكأنه يتأمل
التحول السريع في كل شيء ، في الايام والزمين ، والانسان ،
والجماد ، الضحك ، والبكاء والقرب والبعد ، وليسالى اللعب
الهنئية ، وساعات الجد القاسية •

ولم يخرج عن هذا التأمل أو هذا الجمود الذي اطبق عليه
الا بعد أن رفع عينيه المبتلتين بالدموع فرأى ساحة المحطة التي
كانت تفص بجموع المودعين موحشة خالية الا من - غنيم -
خفير المحطة الذي أحزنه هو الآخر هذا الفراغ ، يقبل من عند
الصهريج بعد أن أقفل الطريق وراء القطار وأعاد التحويلة
بالخطر • وهو يردد مغنيا في الليل بصوت موحش حزين استمع
اليه الصبي ، ووقف يصنى اليه جيذا والدموع تتساقط من
عينيه ••

رُعِق الوابور ، على السفر
رايحين تغيبوا سنه
قلت رايحين فـين
ولا تغيبوا اتنين
يا ليلى ملكتوا الفؤاد
يا كحلـه جو العين

الفصل الخامس

لم تكن حياة الصبي في المعهد .
شقاء كلها . ولم تكن يؤسسا كلها .
وانما تخللتها لحظات كثيرة من
السعادة ، غمرته وفاضت عليه ، وأسته كل شيء دونها . هذه
اللحظات هي لحظات نجاحه المطرد وقدرته الدائمة على الدرس
والتحصيل . ولذلك كان لتفوقه في العام الاول الاثر الكبير
في حياته . وفي نفسيته وفي مشاعره نحو نفسه ونحو
الآخرين . فقد تغيرت نظرته لكل شيء حتى نحو نفسه . فكلية
الصبي أصبحت في خبر كان . وحلت محلها كلمة - الشيخ -
الشيخ امام ذهب والشيخ امام جاء . وساعده على ذلك بسطة
في الجسم وهبها الله له . حتى انه سبق سنة بسنوات . وغدا
فارار الطول عريض المنكبين قوى البنية ضخما عملاقا ، كما
وهب الله أيضا جمالا في الوجه وصفاء في العين حتى خافت
عليه أمه . وراحت تحمله مالا يطيق من الاحجية والتعاويز التي
تقيه شر العين . وراح يقضى أيام الاجازات في القرية . لا كما
كان يقضيها فيما مضى يلعب في الجرن الاستغمانية وجمال
المالح ، وحلقه ومضرب او يسرق البيض من امه ويشترى بئمه
الحلاوة الطحينية لتأكلها سلوى . او يقود الشيخ نوفل في ليالى
ومضان ويطوف معه على الابواب مستجديا الصدقة . وانما كان
يقضى أيامه في القرية . اما في المسجد يصلى ويتعبد أو في
المدرسة يتحدث الى أساتذتها الذين سوف يكون معهم في القريب
العاجل . ويتفقد بعض الفصول ويصنئ الى الاساتذة وهم يلقون
دروسهم على الطلاب . أو يذهب الى كتاب الشيخ عليش السدي
قضى فيه زمنا وتعلم فيه أحرف الهجاء ، وأحيانا كان يجلس في
الكتاب بدل الشيخ عليش ويلقى هو الدرس على الصبية . أو
يذهب الى المسجد ويؤذن في الناس بدل الشيخ نوفل . حتى
إذا ما انقضت أيام الاجازة وعاد الشيخ امام الى المعهد .
ترك فراغا كبيرا في كل أنحاء القرية . في المدرسة وفي الكتاب ،
وفي المسجد ، وفي قلب أمه التي كانت تغمر الفرحة قلبها

كلما رآته مقبلا على الحارة يخب في الكاكولة الكشمير والحذاء الاصفر الفاقح • وفي قلب والده الذى كلمسا رآه وكان متعبا مكدودا أو يعانى مرض الشيوخوخة التى داهمته سريعا • سعد وابنته • وشفى من كل أمراضه • وظل - الصبى - أو الشيخ أمام هكذا من نجاح الى نجاح حتى جاء اليوم الفصل وهو امتحان المعهد الاخير الذى سمينال فيه الشيخ تجهيزية الازهر وينتقل بعدها الى القاهرة • وكان نصيب الشيخ أكثر مما كان ينتظر وأكثر مما كان يتمنى ••

فقد نجح بتفوق كبير • لقد كان امام من الخمسة الاوائل الذين من حقهم على الدولة أن يدخلوا معاهدها الكبيرة ويتعلموا فيها بالمجان • ولم تكن فرحة امام بهذا النجاح العظيم من أجل نفسه ولا من أجل مستقبله الذى تحدد وانما من أجل أبيه الذى حقق له بعض آماله •• وحقق له مع هذا النجاح أشياء أخرى لا تقل أهمية على النجاح نفسه • وهى ان الدولة سوف تتكفل به • وسوف تريح والده من عناء كان لابد مجهده اذا ما ذهب الى القاهرة واحتاج الى نفقات العلم بجانب نفقات الحياة • لذلك ما ان علم امام بهذه النتيجة السارة حتى رجع الى القرية سريعا تسبقه أشياء كثيرة •• كثيرة جدا يريد أن يزفها لأبيه • بيد أن الله الذى يراف بالصالحين من عباده ويهيئ لهم من أسباب النجاح والهناء والسعادة أكثر مما يقدرون ، يعود لحكمة يعرفها فيقسو عليهم ويصيبهم دون أن ينتظروا بشقاء ليس من سبيل الى احتمال ، وليس من سبيل أيضا الى الصبر عليه •

فقد رجع الفتى الى القرية عصر ذلك اليوم فرحا مسرورا •• وما أن أقبل على الحارة تسبقه هذه الفرحة الغامرة ، حتى استوقفته الحاجة مقبولة وقالت له وهى تنب بمذبتها اللوف أسراب الذباب المتجمعة فى قلب صندوقها الفارغ وبصوت يذوب فى ولوعة وحزنا :

- كن لأمك المسكينة عوضا لها عن أبيك • ومن أنجبك يابنى لم يمت ••

السباب..

الفصل السادس

قال خاله لأمه ، بعد أن شيعوا
جثة والده وعادوا الى البيت :
- ان عليك أن تخلصي حجرتك في
الدھليز يا أمّنة ليقطنها الخولى الجديد .
فامتقع وجه أمّنة وقالت وهى تمسح
بعض الدموع التى على شفّتيها
المقرورتين :

- أمكذا سريعا يا عبد العزيز .
- انه سكن الخولى يا أمّنة . وقال لى الناظر اليسوم ونحن
نشيع الجنازة أن خوليا جديدا قد عين خلفا للمرحوم .
- لعلهم كانوا ينتظرون موته .

نطقتها أمّنة وهى تغمض عينيها المقرورتين . ثم عادت
وفتحتهما وقالت وهى تنظر الى الارض ، وكأنها تبحث عن شىء
عند قدميها :

- ولكن أين سأقيم وأنا مريضة كما ترى ؟
فصمت شقيقها لحظة ، ثم تمتم وكأنه ينتزع الكلمات انتزاعا
من بين شفّتيه :

- فى بيتى يا أمّنة .
فاضطربت فى خوف شديد وقالت :
- فى بيتك ؟

- أجل . . . ألسنت شقيقك . . . وبيتى هو بيتك يا أمّنة . . .
فنكست أمّنة رأسها وقالت ومازال الخوف يلازمها :
- أبعد أن حرمت عليك زوجك حتى زيارة القرية التى أنا
فيها ، تعود وتقبلنى فى بيتها ؟

ولم يسمع امام بقية الحديث الذى دار بين خاله وأمه أو بين
الشقيقين . . . لأن الدموع كانت قد غمرت عينيها .
وأحس بالدموع تطمس المرثيات جميعا فى عينيها ، وتحيلها

الى خيالات متعددة تتراقص امامه .. جثة أبيه مسجاة على
« طبلية » خشب كبيرة ويصب عليها الماء .. ثوب أبيض تلف
فيه الجثة .. حفرة كبيرة فى قبر مهجور .. كومة من التراب
تنهال .. امرأة تلطم خديها .. امرأة تشق ثوبها .. وجه
المرأة يغبر ويكتئب حتى يصبح كقطعة من الفحم .. نفس الوجه
يمتقع ويصفر ويكتنفه الشحوب حتى يصبح كالرقعة الصفراء
الفاقح لونها .. بيت سيخلى .. غرفة عزيزة ستهجر .. صبي
يلعب فى الجرن .. شيخ يرتدى الكاكوله والعمامة البيضاء
.. المعهد .. تجهيزية الازهر .. القاهرة سنوات التخصص ..
خبز .. نقود .. جوع .. دموع تنساب .. أرض تدور .. رأس
يكاد يتحطم ثم نىء ثقيل يسقط على الأرض ولم يظن اليه أحد
.. لحظات تمر .. باب يفتح .. أم تدخل .. يد رحيمة تمتد
.. صدر خافق يحنو .. قلب حنون يتفتح .. احضان ترتجف
.. ذراع ترتعش تنهضه .. تحنو عليه .. وتغر كأنه الدنيا
يضم وجهه بالقبلات ..

الفصل السابع

ومرت بعد ذلك أيام كان لابد لها أن تمر .. وحدثت خلالها أحداث كان لابد لها أن تحدث . انتقلت آمنة الى دار عبدالعزيز وعاشت هناك تستجدى اللقمة وتنتظرها من يد المرأة التي تبغضها وتحقد عليها وترهبها صنوف الهوان ألوانا .

وذهب الشاب الى الناهرة الواسعة التي بهرته طلعتها . وأقلقت الحياة فيها .. فراح يهيم على وجهه فى الطرقات طول النهار وأغلب الليل . يقطع الأزقة ، ويجوس خلال الدروب والحارات لعله يظفر بغرفة متواضعة بأجر زهيد يمكنه سداده .

كان كل الذى يحمله فى جيبه تميمة أعطتها له أمه وقالت له أن أباه كان يحملها لتوسع له الرزق .. وتجلب له الخير وتهىء له من أمره رشدا .. وخطاب أملتة عليه أمه ، وأملاه عليه أيضا الشيخ نوفل وذيله بسطرين من عنده الشيخ يسيونى مأذون اشرع .. يرجون فيه رجل البر والتقوى والصلاح والعلم الشيخ الشرنوبى أبو اسماعيل . الذى مازالت القرية تذكر أيامه بالخير .. يرجونه خيرا بالشباب ويوصونه أن يكون له عوناً اذا احتاج الى العون وأن يكون له فى غربته نصيراً اذا عز النصير ويحمل الفتى مع ذلك أيضا ثلاث جنيهاً .. بعضها تصدق به عليه خاله من وراء زوجته ، وبعضها كان ثمن الحلخال الذى باعته أمه ، وبعضها الآخر كان يملكها من قبل . وثلاثة جنيهاً ثروة كبيرة من غير شك .. ولها فى حساب الفتى شأن أى شأن . ولها أيضا فى تقديره قيمة كبيرة يشكر الله عليها ويحمده اذ أتاحتها له . ولكن أليست الايام هى الأخرى لها عنده كل هذا الشأن ، ولها فى تقديره كل هذه القيمة . هل سيتاح له أن يظفر بمثل هذا المبلغ مرة أخرى ؟ وهل خاله سيتصدق عليه بشئ مرة ثانية ؟ أم هل ستجد له أمه خلخالاً آخر تبيعه ؟

كان التفكير فى هذا يرهقه ارهاقا شديداً ويسبب له قلقا اذا أمسى .. وينسب له قلقا اذا أصبح .. واضطر مرغماً كل يوم ان يدفع الخمسة قروش أجر نومه فى لوكاندة المدينة المنورة الكائنة خلف مسجد سيدتنا الحسين . أما ما عدا ذلك كله فهو عنده ميسور وميسر .. فالطعام قد ذبر الله له أمره ..

اذ صنعت له أمه « قفة » كبيرة ملاتها « بالمرحرح » وهو خبز من الحلبه والشعير وبعض الاذره .. علم الفقير اهل الريف كيف يصنعونه بطريقة فنية ماهرة تجعله يعمر طويلا دون أن يلحق به عطب فيتغير طعمه ، وهو عدا ذلك يمتاز بأنه رقيق جدا بحيث تنسع القفة الواحدة لأكثر من ألفي رغيف . وهذه الزيادة تكفى الشاب لعدة شهور .. يقضى الله بعدها أمرا كان مفعولا . وكذلك أيضا يسر الله له أمر ملابسه « قالنا دولة الكشمير » التي كان أبوه رحمه الله قد صنعها له ، ما زالت زاهية اللون نحتفظ بجدتها ، ولا يهمه بعد ذلك ما يرتديه تحتها من ثياب ، سواء كانت جديدة أم قديمة .. مرتقة أم غير مرتقة .

وظل الفتى كذلك عدة أيام يطوف على الحارات والازقة فى النهار يبحث عن غرفة يقطنها بأجر متواضع يستطيع سداده . اما اذا جاء الليل وذهب الى لوكاندة المدينة المنورة لينام ويستريح من عناء النهار .. خاصم النوم عينيه ، كلما تذكر الخمسه مروش التى سيدفعها فى الصباح أجرا للوكاندة . بيد أن لكل شيء نهاية وكما قالت له أمه ان عين الله ساهرة ، وانه من وراء الخلق ييسر لهم أمورهم ، ويفرج لهم كربهم ، وإن الامور اذا تعقدت كان هذا ايدانا بحلها .. فقد بعث الله له بقلب حنون أشفق عليه ورثى لحاله . وهو قلب محمد بن خادم اللوكاندة الذى هداه الى غرفة يقطنها بأجر زهيد يقدر على سداده .

كانت الغرفة التى اهتدى اليها ، فى بيت قديم فى زقاق الجناينية المتفرع من حارة درب المسرات . فى حى حوش الشرقاوى بباب الخلق .. خلف ديوان المحافظة تملكه الست شغفات الحروبولى الشهيرة بالمعلمة وقد لاقى الشاب عناء كبيرا حتى اهتدى الى هذا البيت الذى كتب له عنوانه محمد بن .. لانك لكى تبلغ هذا البيت يتحتم عليك أن تصعد عشر درجات من الحجر القديم المتناكل تفرها المياه القذرة صيفا وشتاء وتعرف فى الحى الى الآن بـ « سلاّم السبيل » ثم تنحدر منها يمينا الى حارة درب المسرات وتسير شوطا كبيرا وسط عدة أبنية متلاحقة ، تكاد تكون متصلة شرفاتها المصنوعة من خشب البقدادلى على الطراز العربى القديم المعروف « بالمشربيات » ولا بد أن تجد أمام كل شرفة صنفا من القلل القناوى ذات الالوان المختلفة ، والاغطية النحاسية وعدة أقبية مهجورة .. وعليك أن تسير فى هذا الزقاق الذى يمتاز بطول غريب جدا

حتى تقطعه الى نهايته .. وعند ذلك تبلغ « السيرجة » وهي المعروفة في الحى بـ « سيرجة المعلمة » فتغمر أنفك رائحة الزيت والكسب والبذور العفنة .. فتسترد أنفاسك لانك تكون قد بلغت البيت .. وطالعك إياه الفولاذى الضخم الذى انتصب بين بعض الاقيية المهجورة والجدران المهدمة أشبه بتمثال ضخيم قام بين الاطلال من عدة قرون .

كان الباب من السمك والضخامة .. بحيث لا يمكن زحزحته أو تحريكه .. تزين جوانبه بعض نقوش نحاسية قديمة أكل الصدا بعضها وبقي بعضها الآخر يغالب الزمن ويتوسطه باب آخر صغير ، ذو « سقاطة » حديدية ضخمة ، ما أن ترفعها بيديك حتى تسمع صوتا مزعجا بالداخل أشبه بأصوات الاوانى النحاسية عندما تسقط على الارض فتتزعج وتخاف .. بيد أن هذا الخوف يزول عندما تتبين أنه صوت الجنزير الطويل المعلق في طرف السقاطة من الداخل . ثم بعد ذلك يفتح الباب . أو بمعنى أصح تنفتح - الخوخة - فتحنى رأسك ، وتقوس ظهرك لتدلف منه . فإذا بك أمام دهليز فسيح ، ولكنه رطب مظلم ، لا تستطيع من الظلام أن تتبين بسهولة محتوياته ، أو ترى ما يشبه الاشباح تطالعك في الظلام منتصبه على جوانبه . فإذا ما تبينتها جليا ، عرفت أنها أبواب الغرف الثلاث التى يتكون منها البيت . أو بمعنى آخر هى التى يتكون منها نصف البيت فقط . لان النصف الآخر ، وهو الذى فى مواجهة الداخل . قبو كبير تتوسطه - السيرجة - وهى عبارة عن بئر فوقه حجر ضخيم فى وسطه دائرة كبيرة كدائرة الساقية يدور فيها حمار متعب هزيل مغمض العينين يجر خلفه حجرا كبيرا وكأنه يجر خلفه متاعبه وشقاءه .

ثم بجانب مدخل السيرجة وعلى يمين الدهليز نصف برميل قديم امتلا بالماء الأسن القذر . تعلوه طبقة خضراء لزجة . تتصاعد منها رائحة كريهة . تشبه رائحة الكسب والبذور العفنة التى تتصاعد من السرجة . وعلى رأس نصف البرميل ، حنفية صغيرة تتساقط منها بعض نقاط الماء فى هدوء حزين كما تتساقط فى الليل دموع الثكالى . أما الغرف الثلاث فكانت احداها وهى على يمين الداخل مباشرة خلف الخوخة .. ذات باب نظيف يميل لونه الى البياض . يعلوه شباك زجاجى مختلفة ألوانه . وكانت تمتاز هذه الغرفة عن غيرها بشئير كبير من النحاس قام فى وسطها كالطختران . تزينه ملاءة

محلوى ذات مربعات بيضاء وحمراء • وتعلو - ناموسية - من التل المبني انعقدت في قلبه فعدت كالقبة المنقلبة في الهواء • ويمتاز هذا السرير أيضا بعلو غريب • بحيث لا يمكنك اعتلاء سطحه الا بواسطة سلم دائرى وضع امامه • وحليت درجاته الثلاث المبطنة بالقطن والحريز بغطاء من القטיפه الخضراء الباهتة وحول كل درجة من الدرجات الثلاث - برقع - من القטיפه أيضا تتدلى منه عدة شراريب ذات ألوان متعددة • • ويقابل السرير - بويه - كبير وضع خلف باب لم يستعمل • كان فيما مضى يوصل الى الغرفة الثانية التى تلى هذه الغرفة مباشرة وهى الغرفة التى قطنها الشاب • والبريه يكاد هو الآخر يكون فى ضخامة السرير له عدة أدراج وخزانة كبيرة وفوقه تحت المرأة رخامة كبيرة زرقاء تكسرت منذ سنوات • وقد امتلا قلبه بعلب الثقاب الفارغة والأبر والدبابيس القديمة وعدة قطع من الفاسوخ والجوى وعين العفريت • وبذور الكسبرة والشيح • • وقد تلوث هذا كله بسائل الشمع مما يدل على قدمه ، حتى غدا منظره قذرا مشوها • وبجوار الشمعدان قلة بيضاء من الزجاج عليها باقة من الورد الصناعى الذى بليت أوراقه • وتاكل بعضها ولوث الذباب بعضها الآخر • وحول عنق القلة عدة حبال رفيعة من الخرز الابيض والاصفر والاحمر ، علق بها عدة حلقات نحاسية ، ونصف مفتاح حديد قديم ، وحجاب مغلف تغليفا جيدا • ثم بجوار القلة كوز نحاسى ، تزينه عدة نقوش عربية قديمة • وضمت عليها قطعة من اللوف ، وصابونة حمراء - ممسكة - وبجانبه - مكحلة - ذات مروود نحاسى أيضا منقوشة بنفس النقوش العربية المرسومة على الكوز • •

هذه الغرفة تقطنها المعلمة شفاعات • صاحبة البيت والسيرجه وهى امرأة فى منتصف العقد الرابع ، ذات جمال أخاذ تبهر العين طلعتة • وقوام سمهري ممشوق عرفت كيف تغذيه وتتعهد فندا كالفرع المياد الذى يتهادى مع النسيم • ووجه يفيض بالبشر يعلوه جبين وضاح يشبه فلق الصبح • تزينه دائما - قصة - من الشعر الفاحم يتوسطها - فرق - صغير انطبع على الجبين كالهلال الوليد • وفوق هذا كله منديلها المطرز بالترتر وخروج النعجف ، وزهور القرنفل البيضاء •

انعقد حول رأسها ، وتدلت أطرافه بين - المقصوص - الطويل المنساب حول الأذن التي يزيناها قرط ذهبي كبير على هيئة نصف دائرة ، يروح ويحيى فوق الكتف المرمية البيضاء ، التي حجبتهاملاة سوداء رقيقة من الحرير الخفيف الرقيق الملمس عرفت كيف تحكمها في مهارة فائقة حول جسدها . . . وتضغط نسجها الرقيق على قوامها الفارع وقدها المشقوق . بحيث فصلته تفصيلا وأبرزت محاسنه وجعلت كنوزه تتوهج نورا في عينيك . تماما كما تتوهج كنوز الماس والجواهر في قلب فترينه من زجاج . . .

وهي امرأة عصبية المزاج جدا شرسة الطباع الى حد كبير . بحيث أنها اذا ثارت أو غضبت أو عكر صفوها : ينقلب هذا الجمال كله ، وهذه الفتنة التي لا حد لها وهذا الخفر والحياء الذي يشبه حياة العذاري وخفرهم . الى عنف وقسوة ووحشية . . . مما جعل سكان الحارة بل والحي كله يخافونها ويخشونها ويعملون لها ألف حساب وحساب . ولذلك فالقول ما قالت المعلمة ، والامر ما أمرت به المعلمة . وقد ساعدها هذا بعد أن مات زوجها من سنين وأشرفت هي على الثروة التي تركها لها . البيت والسرجة وثلاثة دكاكين في حارة السطوحى ، وحوش فى درب سعادة . . ساعدها على أن تدير كل هذا بنفسها دون أن تفكر فى الزواج . . أو فى أحد يساعدها فى الاشراف على السرجة اللهم الا الاستاذ حسبو . وهو الذى يقطن الغرفة الثالثة من الدهليز التى يقع بجانب السرجة تماما وحسبو هذا أو الأستاذ حسبو ، كما كان يصر على أن يسمى نفسه كهل فى الستين من عمره ، رغم أنه كان يصر على أنه مازال فى دور الشباب وأنه فى العقد الرابع وأن سن الأربعين هى سن الشباب المكتمل والرجولة الناضجة ، وكان منظره يبعث على القراة والدهشة بحيث يلفت نظرك بمجرد أن تراه . وتقف عيناك عليه لا تتحول . فهو يرتدى بذلة لا يعرف لها عمر ولا لون ولا حتى طراز . . . فهى عدة ألوان . إذ كلما تأكل جانب منها رتقه بلون جديد . . وهو يرتدى دائما ياقة منشأة عالية من الطراز القديم ذات

فتحات أفقية بارزة ورباط رقبة ، تأكلت أطرافه حتى بلغ التأكل عقدة الرقبة وصديري من الحرير - الالاجه - زى أصحاب اليسار فى الزمن القديم . وقد بلى هذا الصديري أيضا وتمزق وتأكل حتى لم يبق منه سوى أزراره الصدفية الغالية التى تدل على أصله وترمز الى مجده القديم . ويضع على عينيه دائما منظارا سميكا ذا أسلاك نحاسية صدئة تلوث زجاجه الابيض وتشقق بحيث أنك لا تستطيع أن ترى من خلفه لون عينيه . وبحيث لا يستطيع هو أيضا أن يرى من خلفه شيئا . وهو رغم نحافته وضموره وشحوب لونه الدائم الذى يشبه وجوه الاموات يتمتم بحيوية غريبة ونشاط دائم ، ونفس صافية مستبشرة دائما يضحك دائما ولا يعبث أبدا . ويرسل الفكاهة تلو الفكاهة . والنكتة تلو النكتة حتى ليجعلك تستلقى من الضحك .

وكان لا يبالي اذا واثته النكتة أن يلقي بها ولو كان فى خضرة النساء مهما كان مرماها . وهو يشغل فى الحى عدة وظائف غير وظيفته الاصلية وهى ادارة السرجة . وادارة اعمال المعلمة جميعا والاشراف عليها . فهو - عرضحالى - الحى . ويعتبر نفسه من أشهر رجال القانون وقد كتب لافتة كبيرة يعلقها فى الليل على باب غرفته فى الدهليز ، ويعلقها فى النهار على الحائط فى الحارة حيث يجلس الى ترابيزته الخشب . وقد كتب عليها بخط بارز واضح « الاستاذ حسبو القط خبير بشئون المحاكم الاهلية والشرعية وجميع القوانين على اختلاف أنواعها . وباشكاتب محكمة سابق . ووكيل محام سابق . . . وعضو نقابة وكلاء المحامين سابقا » . وقد اتخذ له مكتبا على رأس الزقاق عند أول حارة السطوحى . حيث يجلس فى الطريق بجانب الحائط الى ترابيزة خشب قديمة عليها محبرة نحاسية مستطيلة صفراء اللون يضع فى قلبها عدة أقلام من البسط . وبعض بقايا من أقلام الرصاص وفى طرفها فجوة بداخلها قطعة من القماش مبللة بالخبر الازرق الذى يميل الى السواد . وبجانبا بعض المرائض البيضاء . وهو يعتز جدا بهذه المحبرة النحاسية التى لها عنده تاريخ قديم معروف فهم

المحبرة التي كان نابليون يوقع منها أوامره اليومية الى جيشه أيام احتلاله - القاهرة المعز - تم آلت من بعده الى قائده العظيم - كليبر - ثم بعد قتل كليبر - اغتصبها بعض الفرنجة الذين استوطنوا مصر بعد جلاء الفرنسيين - ثم انتهت في النهاية الى جده الثاني - أى جد الاستاذ حسبو الذى كان يشغل وظيفة مهمندار السلطنة - وظلت فى حوزته الى أن ورثها هو - وكان يجلس الى مكتبه هذا طول اليوم ، ومن حوله بعض النسوة يستشرنه فى شئونهن ، وحل مشاكلهن - وهو يدرايته الواسعة ، يصرف لهن الامور ، ويحل لهن المشاكل العائلية أو يعقدها ، حسب ما فيه صالح موكلته من حيث الطلاق ، أو النفقة ، أو الطاعة أو الزواج .

وكان للاستاذ حسبو وظيفة ثالثة أهم بكثير من هذا كله وهى كتابة خطابات الغرام للعشاق والمحبين ، وقد برع فى هذا براعة فائقة ، حتى اشتهر فى الحى بذلك ، وصارت له سمعة واسعة ، ومقدرة لا تدانيها مقدرة . . فخطاب واحد من خطابات العشاق والهيام يدبجه ببراعة يكون له فعل السحر ، بحيث يلين الحجر ، ويذيب الحديد . ويجعل الحبيب القاسى القلب . . يخر ساجدا عند قدمي المحب من أول سطر . . ان لم يكن من أول كلمة ، ولذلك فهو كل ليلة وبعد صلاة العشاء بالذات لابد أن يكون فى مكتبه على رأس الحارة . . حيث توافيه خلصة بعض بنات الحى ، ونساؤه ، وشبابه ، هذا يكتب للمحبيب يستجدى الوفاء ويرجو اللقاء ، ولو مرة عند سلالم السبيل . وتلك تصف لزوجها الغائب كيف أضناها الشوق ، وطال بها البعاد . وهذه الحبيبة تصف للحبيب كيف كانت فرحة اللقاء ، ولذة العناق ، وسعادة القلب عندما وافاها الحبيب فى الظلام خلف السرجة . وهو يعتز بمقدرته هذه الفائقة فى تدبيح الخطابات ولا يسمح لاحد أن يعارضه فى لفظ . أو يعترض على معنى . . ومن يفعل فالويل له . . وقد حدث ذات مرة أنه كان يقرأ خطابا غراميا كتبه لخدمة جميلة لتبعث به للحبيب المتجنى عسى أن يلين قلبه ، وراح الاستاذ حسبو يقرأ عليها بصوت منغم ما جادت به قريحته وما دبجه ببراعة .

أبعث اليك مع الليل سلامي ، وابثك مع الفجر هيامي ،
وأرسل اليك مع النسيم كتاب غرامي ، كتبتة وأنا على الجمر
أثقل ، وفي نار الحب أتعذب ، وفي جحيم الشوق غارقة ، وإلى
طلعتك البهية وامقة ..

وعند ذلك استوقفته الفتاة وسألته قائلة :

— وامقة يعنى ايه يا أستاذ ؟

فثار الاستاذ حسبو لهذه المقاطعة ، وهذا السؤال وغضب
غضبا شديدا حتى كاد يمزق الخطاب . لولا أن الفتاة اعتذرت
له ، واسترضته ، وقدمت له القروش الخمسة وهى الثمن الذى
حدده لكل خطاب غرامى يكتبه . فهدأت نائرتة ، وعلت ثغره

ابتسامة وهو يتناول منها القروش الخمسة .. ويخرج لها
الخطاب من درج التراييزة الذى كان قد أعاده اليه ، كما أخرج
زجاجة الخمر وشرب منها بعض الشيء ، ثم أخرج أيضا كتابا
قديما باليا أصفر الصفحات ، كتب على غلافه السميكة « جنة
الاشواق فى رسائل العشاق لمؤلفه أمير المحبين وحبر العاشقين
سيدنا عبد الله بن القيروان .. طيب الله ثراه .. وجعل الجنة
مشواه ، ونفع المحبين بذكره .. »

وبعد أن راجع الفهرس طويلا فتح الكتاب على صفحة بعينها ،
كتبت على رأسها العبارة التالية « بين الاحبة والاحباب فى
رسائل الهجر والعتاب » وراح يقرأ فى سره قليلا فى هذا الباب
حتى وصل الى كلمة « وامق » فراح يقرأ شرحها على الفتاة :
وامق بمعنى عاشق أى مشتقة من العشق كما يشتق العاشق
من المعشوق . والله أعلم ..

الفصل الثامن

ذهب الشاب كما قال له محمد بن الى حارة السطوحى وانحدر منها الى زقاق درب المسرات ، وشر سرورا كبيرا عندما عرف من صبي صغير كان يلعب امام البيت أن الفسرفة الحالية فى منزل « المعلمة » مازالت خالية ، ولم تؤجر بعد . وكان الصبى الصغير أطيّب خلقا مما كان ينتظر الشاب . . . لانه ذهب سمه الى حيث يجلس الاستاذ حسبو وكيل المعلمة .

وتقدم الشاب من الاستاذ حسبو فى خطى وثيدة وبسمل وحوقل كماداته كلما هم بأمر ، ثم ألقى عليه السلام ، فرد الاستاذ حسبو التحية ولكن دون أن ينظر اليه فقد كان منهمكا فى تدبيج عريضة دعوى طلاق . فقال الشاب :

— أريد أن استأجر الغرفة الحالية عندك فى البيت . .
عند ذلك رفع الاستاذ حسبو رأسه ونظر الى الشاب وتفحصه جيدا من خلف منظاره السميكة الملوثة ثم قال :
— اسمك ؟

— امام بلتاجى حسنين ، من البتانون مركز المنوفية .
— صنعتك .
— طالب علم .

فعاود الاستاذ حسبو النظر اليه وقال ساخرا :
— كل هذا الجسم الطويل العريض ، وطالب علم ؟
فصمت الشاب فى خجل ولم يجب . فقال الاستاذ حسبو فى نفس السخرية :

— وطالب علم فى أى كتاب يا أستاذ امام .
— فى الازهر الشريف .

فصمت الاستاذ حسبو لحظات مد خلالها يده الى حقيبتة الجلد ، وأخرج زجاجة الحمر وأفرغ منها شيئا فى جوفه . ولما لاحظ أن شيئا من الامتعاض ارتسم على وجه الشاب ، قال وهو يعيد الزجاجة الى مكانها ، وما زالت شفثاه ترتعشان تقززا من طعم الحمر الرخيصة ومذاقها المر :

- دواء ... دواء يا بنى .
ثم مسح على شفتيه وقال وهو ينظر الى الشاب :
- هل تعرف الماكينة التى تدار بالسولار . أى بالغاز
القنذر ؟

فاندھش الشاب لهذا السؤال الغريب وقال :
- أجل أعرفها .
أنا مثلها تماما . . . هى لا تدور الا بالغاز الوسنج . . . وأنا
ايضا لا أسير الا بهذا الدواء الوسنج . . .

قال ذلك واستلقى ضاحكا فى قهقهة كبيرة . فجاراه الشاب
فى الضحك تادبا . . . بيد أنه اعتدل فجأة وقال جادا وهو يعاود
النظر اليه وكأنه يراه لأول مرة :

- قلت لى انك مجاور فى الازھر ، وانك تريد أن تستأجر
الغرفة . . . فهل عرفت قيمة ايجارها . . .
فقال الشاب :

- مهما كانت فهى مقبولة منك .
فقال الاستاذ حسبو وهو ينظر اليه وكأنه يسدى اليه
نصيحة :

- هذا كلام فارغ . القربة لا تخر الا على رأس من يحملها
والنار لا تحرق الا من يمسكها . وانت الذى ستدفع . فهل
تقدر على ثلاثين قرشا لا تنقص دانقا ؟

فقال الشاب على الفور فرحا كأنه ظفر بكنز :
- أقدر .

- وتدفعها مقدما ؟

- مقدما . . .

- وبصفة دائمة ؟

- دائمة .

- وبلا ابطاء أو اھمال أو تأخير ؟

- وبلا ابطاء أو اھمال أو تأخير . . .

- وان لا تراوغ فى الدفع بحجة المرض ، أو ضيق ذات اليد
أو سرقة نقودك ، أو فقد بعض الھل أو الصحاب ، كما يفعل
الطلبة أمثالك ؟

- أبدا .. أبدا .. اننى لست من هؤلاء .
 فقال الاستاذ حسبو مبتسما وهو يرفع نظاره من على
 عينيه وينفخ فيه ويمسحه بخرقه كانت بجانب المحبرة النحاسية
 ملوثة بالخبر :
 - ومن الذى يضمنك . يا سيد امام يا بلتاجى يا حسنين ؟
 فارتج الامر على الشاب وصمت حيناً . ثم قال متلعثما فى
 خوف شديد :
 - ليس لى غير الله ..
 - ونعم بالله .
 نطقها الاستاذ حسبو فى ايمان زائد وهو يفتح الدرج ويخرج
 منه عقدا مطبوعا ويقول :
 - وحتى ان لم تدفع يا بنى بعد هذا . فسوف اتكفل أنا
 بالسداد عنك .

الفصل التاسع

كانت فرحة الشاب بهذه الغرفة التى ظفر بها وبهـذا
الاجار القليل الذى لم يكن ينتظره • وبصداقته التى توطدت
من اول لقاء بالاستاذ حسبو • فرحة كبيرة انسته كل متاعبه
التى عاش فيها منذ أن هبط القاهرة • ولذلك ذهب من فوره
الى محمد بن فى لوكاندة المدينة المنورة ، وشكره على هذا الجميل
الذى لن ينساه وأعطاء خمسة قروش نظير هذه الحسنة التى
أسداها اليه ونظير أن ينقل له القفة وبعض متاعه الآخر الى
هناك • كما استطاع الشاب وبواسطة محمد بن أيضا أن يحصل
على سرير ينام عليه بأجر زهيد جدا من مخلفات أسرة اللوكاندة
وهو عبارة عن - حمارين - من الخشب تنقلهما كما تشاء ،
وتضعهما فى أى مكان تشاء ، وفوقهما شبكة من خشب
البغدادلى - سكونه - تعلوها مرتبة عبارة عن كيس فارغ من
أكياس القطن محشو بالقطن وفوقها ملالة محلاوى نصف
عمر • وكذلك بطانية صوف خشنة من مخلفات الجيش
البريطانى وقد نقل له محمد بن كل هذا الى السكن الجديد ••
وما أن أقبل المغرب حتى كان الشاب فى غرفته مبتهجا كل
الابتهاج ، ينظفها ، ويرتبها ترتيبا جميلا • ثم بعد أن اطمأن
اليها والى ترتيبها ووضع الكاكوله على المسمار الذى أعده لها
فى الحائط • ووضع العمامة فى السقف الذى أعده لها وغلفه
جيدا بالورق السميك حتى لا تنفذ اليها الصراصير • ارتدى
جلبابه ووضع القبقاب الخشب فى قدميه وانصرف الى باب الخلق
يتريضى وينظر الى القاهرة لأول مرة والى الناس والاجناس
الذين يروحون ويجيئون أمامه • وظل كذلك الى أن أحس
بالجوع وفكر أن يعود الى بيته لتناول العشاء ، ولكن رائحة
السّمك المشوى التى تنفذ الى خياشيمه من سماك الملوك الذى
فى الميدان جعلته يقف يفكر قليلا •

ثم انتهى به التفكير الى أن يأكل سمكا هذه الليلة ، فاشترى
ربع رطل بقرش ونصف ، كما ذهب الى طرشيحي الامراء الذى
بجانبه واشترى بنصف القرش • ومن ثم ذهب الى غرفته وهو

يحمل نعيم الدنيا جميعا بين يديه • وما أن بلغ الغرفة ،
واشعل مصباحها الزجاجي ، الذي صنع له برنيطة من الورق
المجفف حتى يحتبس نوره ويتركز في مكان واحد هو الذي
يذاكر فيه ، ووضع كومة السمك الصغيرة أمامه وما أن تطلع
اليها حتى غمرته الفرحة ، وانهاهال عليها يلتهمها التهاما • ثم
بعد أن ألدها جميعا أفرغ نصف القلة في جوفه ، واستلقى بعد
ذلك على السرير ناعم البال ، هادئ النفس • مطمئن الضمير •
انه الآن يستطيع أن يطمئن الى كل شيء • • الى مستقبله
والى حياته الجديدة • وأن يذهب الى الكلية كما يريد • ويستذكر
درسه في بيته كما يريد • ويستطيع أن يدفع ايجار غرفته
هذا الزهيد دون مشقة أو عناء • ويستطيع أن يأكل من حين
الى آخر سمكا طازجا شهيا من سماك الملوك ويستطيع بنصف
القرش أن يقف أمام طرشي الامراء غير هيب أو وجل • وغير
ذلك كله • بل أهم من ذلك كله ، فهو يستطيع الآن وبخطى
ثابتة وعزم قوى ورأس مرفوعة أن يذهب الى العباسية ويسأل
عن الواليلة الصغرى وعن شارع البرجاس والمنزل رقم (٨)
ويزور الاستاذ الشرنوبى أبو اسماعيل • والست صبريه
زوجته • وابنتهما سلوى • زيارة الصديق للصديق • أو الاهل
للاهل ، دون خجل أو تردد أو خوف • ما دام لا يريد معونة
ولا يريد مساعدة فى شيء • وأن يقابل سلوى ويتحدث اليها
حديث الصديق للصديق أيضا ، والزميل للزميل ، والند
للند • انه لن يقابلها كما كان يقابلها وهو فى القرية حافى
القدمين • ممزق الثياب يغمض عينيه عما فى يديها أو فى
جيبها من حلوى ، وغير الحلوى حتى لا تفضحه عيونه التى تتهاقت
نظراتها وتذوب على ما فى يدها من طعام شهى وأصناف الحلوى
اللذيذة • •

انه سيقابلها الآن رجلا مكتمل الرجولة ممتلئ العين مرتديا
زيه الجديد الانيق • الكاكولة • والعمامة • والحذاء اللامع •
ولكن هل ستذكره سلوى وترحب به وتطرب للقياء كما
كانت تفعل فى الماضى • • ؟ أم أن السنوات السبع التى مرت
وغيرت من كل شيء غيبتها هي أيضا ؟ وهل حدث لها كما حدث
له • فرع طولها وامتمشت قوامها وغدا جسمها ذاك النحيل

فارعا فارها ملتفا ، تزينه الثياب ، كما تزين الكاكولة الآن
جسمه الكبير وطوله الفارع . ونظر الى الكاكولة الزرقاء اللامعة ،
المعلقة على المسمار بجانب السرير وذلك السفط الصغير المبطن
بالورق المجفف والعمامة البيضاء الناصعة التى فى قلبه . ثم
نظر الى الحذاء الاصفر اللامع الذى وضع بجانب السفط يحليه
ذلك - الابزيم - الاصفر الفاقع الذى نام على جانب الحذاء ،
فزانه وزاده بهجة ورواء ، نظر الى كل هذا وابتنسم . وغمرته
نشوة فاضت على كيانه . وجعلته وهو مستلق على ظهره فوق
السرير يحملق بعينين سعيدتين فى سماء غرفته . كما يحملق
العصفور الطروب فى سماء الربيع بين الازهار . وظل كذلك
الى أن داعب النوم عينيه فقرأ الفاتحة . وآية الكرسي وعديه
ياسين . كمادته كل ليلة عندما ينام . وزاد عليها هذه الليلة .
سورة - الفلق - وكرر من شر حاسد اذا حسد مرات حتى غلبه
النوم فنام سعيدا لأول مرة . منذ أن نزح الى القاهرة .

الفصل العاشر

وكما سعد الشاب في هذا اليوم كل هذه السعادة . سعد أيضا الاستاذ حسبو واطمان اطمئنانا كبيرا . فقد كان بقاء هذه الغرفة التي استأجرها الشاب خالية لا يسكنها أحد . يسبب له قلقا كبيرا وآلاما لا حد لها . اذ كان يعرضه دائما الى غضب المعلمة . واذاؤها وسخريتها المريرة . والغلظة له في القول كلما رآته أو حدثته حتى أنها من يومين فقط ثارت عليه ثورة عنيفة . وكادت يدها تمتد اليه بالأذى لان الغرفة ظلت خالية . ولم تهدأ ثائرتها الا بعد أن أنذرتة بالطرد من البيت والسرجة والدكان والحارة والحى كله ان لم تسكن الغرفة خلال

الايام القليلة الباقية على الشهر . فوعدها بذلك . مؤملا الخير كله في السماء والارض . أن تسكن الغرفة حتى لا يتعرض في كل ساعة من ساعات النهار والليل الى هذا الاذى الكبير ولهذا كانت فرحته لا تقدر في هذه الليلة عندما استأجر الشاب الغرفة . وراح ينتظر عودة المعلمة من درب سعادة . فقد تعودت أن تذهب الى هناك من حين الى آخر . وتقضى اليوم كله . ومن فرحته لم يشأ أن ينتظرها في البيت ولا في المكتب على رأس الحارة وانما انتظرها عند سلالم السبيل في الظلام حتى أقبلت تتيه وتخب في ملاءتها الحريرية السوداء الرقيقة التي أحكمتها حول جسدها الفارع وقوامها الممشوق . وتدل عجباً بلراءها العارية التي حلت معصمها بالذهب الخالص والتعابين الثلاثة الذهبية التي التفت حول المعصم وزانت الذراع البيضاء العاجية التي أخرجتها من قلب الملاة السوداء . كما يخرج عامود النور من قلب الظلام . وما أن رآها الاستاذ حسبو حتى أسرع باخفاء زجاجة الكونياك في جيبه الخلفي . ومسح على شفثيه سريعا وتقدم اليها ونور الفرحة ينبعث من عينيه ويشع من خلف زجاج منظاره الملوث . وزف اليها البشرى وهو ممسك بعقد الايجار في يده .

وما أن سألته بعض أسئلة وعرفت بأنه أجر الغرفة الى - مجاور في الأزهر - حتى غضبت وثارت وانقلبنت سمحتها فجأة الى ما يشبه الوحش المفترس . وقالت صارخة في صوت كالرعد وهي تمسك بعقد الايجار من يده وتمزقه وتلقى به في وجهه :

- لابد أن تطرده الآن • أن تلقى به الليلة الى الخارج • أنا لا أريد أن أجلب المتاعب الى نفسى • قلت لك ألف مرة ان المجاورين وطلاب العلم لا يجدون قوت يومهم فكيف بهم يدفعون الايجار • الق به الى الحارة الليلة •• الآن •• والا أقيت بك أنت •• أسامع •

وسارت وسار خلفها الاستاذ حسبو يرتعش • كما يسير الكلب الخائف الذى تشده وراءك فى جبل • وكلما حاول أن يقول شيئاً أرغت وأزبدت ودوى صوتها فى الليل • الى أن بلغت نهاية الزقاق • ووقفت عند الخوخة • ونزعت ملاءتها ووضعتها على كتفها كما لو كانت تريد أن تخوض معركة • وقالت له ثانية بأعلى صوتها :

- قلت لك ان لم تطرده الآن وتلقى بعفشه الى الحارة • طردتك أنت وألقيت بسحتك هذه القنطرة فى مراحض •

ثم فتحت باب غرفتها فى ثورة وردته خلفها فى عنف كاد يرتج له البيت كله • ووقف الاستاذ حسبو فى قلب الدهليز المظلم الا من نور خافت ينبعث من قلب السرجة يرتجف •

وينظر الى باب غرفتها الذى أغلقته خلفها فى عنف • وباب غرفة الشاب المجاور لبابها تماما • وفكر ماذا يقول له الآن • وأين يبيت الفتى الليلة • والمعلمة لم تشأ أن تبقيه الى أن يطلع النهار • وهل هكذا تتحكم بالناس وهل هكذا ستظل هذه المعلمة تسومه هذا العذاب • وتكيل له كلما رآته بهذا الكيل الذى لا يتحملة انسان • وهل سيظل قلبها بهذه الغلظة وهذه القسوة • بحيث تطرد شاباً فى هذا الوقت من الليل وتلقى بعفشه الى الطريق • وهو ان لم يطرده الآن كما أمرته • وأبقى عليه الى أن يطلع النهار • فسوف تطرده هو وتلقى به فى الطريق • أو تبقيه لتصب عليه جام غضبها وتسלט عليه سوط عذابها الذى تعب منه جسده الهزيل •

وأحس الاستاذ حسبو بشيء من الضيق بجثم على صدره ويكاد يخنق أنفاسه فأسرع الى زجاجة الكونداك وأخرجها من جيبه الخلفى وتجرع منها عدة جرعات • ثم أعادها ثانية الى جيبه ومن ثم مسح على شفتيه • وفى هدوء كبير جدا اقترب من باب غرفة الشاب • وظل ينقر حتى استيقظ الشاب وفتح الباب وما أن رأى الاستاذ حسبو أمامه حتى رحب به ترحيباً كبيراً جداً وهو يدعوهُ الى الدخول • ووقف الاستاذ حسبو وسط

الغرفة يتأمل محتوياتها لأول مرة • ويفحصها بعينه وينظر الى
الحمارين الخشب والحشية التي يحملانها ، والبطانة الصوف
القديم المتأكدة المتكومة عليها كالكلب الجرب المتكوم في
الطريق وقدر المش والمخل الذي تجمد من الرطوبة • وخرجت
من قلبه الديدان الصغيرة هائمة تسبح حول جدرانها • والى
بعض لقيمات المرحح التي انتشرت على الحشية والى رؤوس
السبك المقلبي وشوكه الذي بقى فى الورقة الصغيرة الملونة
بالزيت المحروق • ثم الى القميص الزفير الممزق الذي يرتديه
الشباب وينام فيه • نظر الاستاذ حسبو الى كل هذا ثم الى
الشباب الذي يتصبب امامه عرقا وخزيا من كل شيء وقع عليه
نظره فى الغرفة • وأحس الاستاذ حسبو نفس الحزى والحجل
الذى أحس به الشباب • ان هو أنباء بالمهمة التي جاء من
أجلها • انه أحس بالعطف على هذا الشاب منذ المرة الاولى التي
رآه فيها • منذ أن قال له ان لأحد له فى الوجود غير الله وهو
يحس بهذا العطف يتضاعف الآن ويزداد ويكاد يبلغ أقصاه
عندما رأى غرفته ، ومنامته ، وبؤسه هذا البائس ، وفقره هذا
الذى لا يماثله الا فقره هو وبؤسه • فكيف يطرده الآن من
الغرفة ؟ كيف يلقي بمتاعه فى الحارة • ثم أين هو المتاع الذى
سيلقى به • انه ان ألقى بشيء الى الخارج ، فلن يلقي الا بالشباب
نفسه • وفى هذا قسوة وظلم •

وأحس الرجل بحرج شديد • وبشيء من الضيق يكاد يجثم
على صدره • فأخرج زجاجة الكونياك ، وتناول منها عدة جرعات
ثم قال للشباب مبتسما بعد أن مسح على شفتيه :

— جئت أطمئن عليك •

— أشكرك • وهذا ما كنت أنتظره منك •

فاعاد الاستاذ حسبو النظر الى الغرفة ومحتوياتها مرة اخرى
ثم قال :

— أعجبتك الغرفة ؟

— نعمة كبيرة وفضل من الله •

فارتبك الاستاذ حسبو بعض الشيء • ولكنه قال :

— أخشى أن تكون الغرفة رطبة عليك •

— أبدا • أبدا •

ثم ابتسم الشاب وقال :

— فرق كبير بينها • وبين غرفتنا السابقة فى دهليز
المرعش •

فاغتاط الاستاذ حسبو وقال :

- الحقيقة أن جميع الذين قطنوها خرجوا منها مرضى
ومصابين بالروماتزم . وأنا كما قلت لك أحبيتك منذ ان
رايتك . ولذلك فانا أخشى عليك المرض يا بنى .
- المرض والصحة بيد الله ، وطالما أن هذه الغرفة منك .
وعن طريقك . فلن أبرحها حتى ولو كان فيها ممانى .
فأخرج الاستاذ حسبو زجاجة الكونياك مرة أخرى . وتجرع
منها عدة جرعات ثم أعادها الى جيبه الخلفي ونظر الى الشاب
وقال له هامسا بعد أن مسح على شفتيه مرة أخرى .
- اذن تعاهدنى على أن تكون معى دائما . وتفعل كل
ما أشير عليك به .
- أعاهدك .

- وأن تتخذ منى صديقا مخلصا لك .
- بل سأخذ منك والدا .
فرجع الاستاذ حسبو ذراعيه المرتعشتين وطوق بهما عنق
الشاب وقبله . ثم أمسك يديه ورفعهما مع يديه الى أعلا وهو
يقول :

- ردد معى هذا الدعاء . قل من قلبك - اللهم انصرنا على
القوم الظالمين - اللهم انصرنا على القوم الظالمين . اللهم انصرنا
على القوم الظالمين . اللهم اجعل انتقامنا منها بقدر اساءتها
الينا .

فقال الشاب فى دهشة كبيرة بعد أن ردد الدعاء :

- من هى ؟
فقال الاستاذ حسبو وهو يضحك ويخرج من الباب .
ويغلقه خلفه على الشاب :
- الدنيا الظالمة يا بنى .

ثم انطلق الى فناء الدهليز . ووقعت عينه على باب غرفة
المعلمة ورآه مفتوحا انها مازالت تنتظره وستسأله ماذا فعل ،
ولماذا لم يطرد الشاب ويخرجه الآن . فماذا سيقول لها ؟
وحقيقة لماذا لم ينفذ رغبتها . ويطرد الشاب كما أمرته .
اليس بيتها ؟ . . اليست هى صاحبة الحق المطلق فى ملكها
تبقى من تشاء وتطرد من تشاء . وتمز من تشاء وتذل من تشاء
فلماذا هو يوقع نفسه فى هذا الحرج الشديد ويعرض نفسه الى
سخطها وانذائها الكسر . لقد ذهب الى الشاب . ليقول له
بأمر المعلمة أخرج الليلة . فماذا قال له . عاهده على أن يكون
له عوناً . عوناً على من ؟ على هذه المرأة !! ان رجال الزقاق
جميعا ، بل رجال الحارة أيضا ، بل رجال الحى كلهم مجتمعين

لو تكاتفوا وتعاونوا وتعاهدوا وكانوا يدا واحدة على هذه المرأة ، لبطشت بهم جميعا . فكيف هو وهذا الشاب الذي لا حول له ولا قوة . سيقفان أمامها ؟ وكيف يبلغ به الجنون أن يفكر فى هذا . أن يوقع نفسه فى هذا الشر الكبير . أن المثل يقول : « أربط الحمار فى المكان الذى يأمر به صاحبه » وهى قد أمرت أن يطرد هذا الشاب فليطرد الشاب كما أمرت . وأخرج من جيبه الخلفى زجاجة الكونياك . وتجرع منها عدة جرعات وأعادها الى مكانها . ثم مسح على شفتيه واتجه سريعا الى غرفة الشاب ووقف على بابها ورفع يده المرتعشة لينقر عليها من جديد . ولكن ماذا سيقول له ؟ المعلمة تريد أن تطردك من الغرفة وتأمرك بالخروج الآن ؟ لماذا ؟؟ حقيقة لماذا ؟ لماذا هذه المرأة القاسية القلب تريد أن تطرده . لقد كانت هذه الغرفة تؤجر بخمسة وعشرين قرشا . فاستأجرها هذا الشاب بثلاثين وكان الايجار يدفع مؤخرا . وفى نهاية كل شهر . ودفعه هذا الشاب مقدما وفى أول الشهر . فلماذا يطرد ؟ لا . لا . لا . لن يطرد هذا الشاب ولن يطرده هو أبدا . ولن تطرده أيضا هى . وإذا طردته سيتعرض هو لها سيمنعها حتى ولو أدى به الامر الى أن يغرس أظفاره هذه الطويلة المدببة فى عينيها وليكن ما يكون . ان ما سيكون مهما كان سواده فلن تبلغ حلكته هذا السواد الذى يعيش فيه مع هذه المرأة . هذا البؤس الذى يتمرغ فيه . وأنزل يده التى كان قد رفعها لينقر بها على باب غرفة الشاب . وهم أن ينقل قدمه ليرجع من حيث أتى بيد أنه فجأة وقف فى مكانه مرتعشا . وجلا متدهور الانفاس فقد سمع صوت المعلمة ينبعث مدويا من غرفتها تناديه باسمه . . . حسبو . . . حسبو فأسرع اليها فى دعر شديد ووقف أمام باب الغرفة فقد كان محرما عليه أن يدخل عليها غرفتها . ولما رآته قالت له وغضب الدنيا جميعا يرتسم على وجهها :

- هل طردت هذا الفتى ؟

- أجل . . أجل . . طردته ، طردته .

- وخرج نهائيا ؟

- أصدرت اليه الاوامر المشددة بالخروج فورا . فذهب لباتى بحمال يحمل له متاعه الى لوكاندة المدينة المنورة حيث كان .

- مدينة منورة . مدينة مظلمة . فقط يخرج الليلة . . . قالت له ذلك وهمت أن تدخل وترد الباب فى وجهه بعنف شديد كما تعودت أن ترد دائما فى وجهه بعنف شديد .

بيد أنها لم تكذب تفعل حتى سمعت فجأة صوت الشنوائى وهو
أحد عمال السرجة ينادى ويستغيث ويولول صارخا :

- بهلول .. بهلول .. أغيثونى .. الحقونى .. بهلول
سقط فى البئر .. بهلول سقط فى البئر ..

فانطلقت كالسهم ومن خلفها الاستاذ حسبو يقطع فناء
الدھليز وما أن أقبلت على السرجة ورات الحمار فى قلب البئر
غارقا وسط عصير الدسب والبنور اللزجة ، يكاد يموت
وتختنق أنفاسه .. وقد غطس كله فى قلب البئر ولم يظهر
منه سوى رأسه وأذنيه فقط حتى انفجر مرجل غضبها وتعالى
صراخها فى الليل كما انطلق الاستاذ حسبو مهرولا الى الزقاق
هاثجا مناديا بأعلى صوته على أهل الزقاق أن يهبوا لانقاذ بهلول
من البئر .. وما هى الا لحظات حتى اجتمع أهل الزقاق جميعا
رجالا ونساء فى قلب السرجة ، الكل يحاول أن يهدىء من ثورة
المعلمة والكل يحاول أن يخرج بهلول من قلب البئر وتعالى
الصراخ والهرج والمزج .. هؤلاء يحاولون بكل ما أوتوا من قوة
أن يزحزحوا الحجر الضخم الذى انزلت من مكانه فوق فتحة
البئر وسدها على الحمار فلا يستطيعون .. وهذا ينادى بأعلى
صوته طالبا حبالا أو جنزيرا ليحزم به الحمار ثم يتعاون الجميع
على رفعه ، وهذا ينزع ثيابه ويغطس فى قلب البئر ، محاولا
أن يحرك الحمار من مكانه فلا يقدر .. وهذه تصرخ مولولة على
الحمار الذى يكاد تختنق أنفاسه .. والمعلمة تنذر بالويل والثبور
لسكان الزقاق ، وعمال السرجة وعلى رأسهم الاستاذ حسبو ان
مات الحمار أو أصيب بسوء .. وبينما الجميع كذلك يكاد يأخذهم
الفرع والياس .. اذا بالشباب وقد خرج من غرفته على هذا
الصراخ والعيول يقف فيهم ويستأذن من الجميع أن يتعدوا
قليلا .. ونظر الى الحجر الضخم ثم ثبت ظهره على جدار السرجة
وقدميه الاثنين على الحجر ومن ثم ضغط عليه بكل قوته ..
وهو يبسمل ويتمتم بشئ من القرآن .. فاذا بالحجر الضخم
يتدحرج امامه كالكرة ، ثم شمر عن فخذه وعقد حول خصره
أطراف قميصه الممزق الذى يرتديه ومن ثم سقط فى قلب
البئر وما هى الا لحظات تكاد تشبه الغمض حتى خرج الحمار
محمولا على كتفيه ممسكا به بذراع واحدة قد لفها حول ظهره
ووقف الجميع ينظرون فى دهشة ، ووقفت المعلمة مدمرة
جاحظة العينين تنظر الى كتف الشاب العريضة الضخمة التى
تحمل الحمار ، وذراعه المقتولة القوية ، التى تلتف حوله ، ثم
تنظر الى جسمه هذا الفارع القوى وهو يسير بالحمار حتى بلغ

به فناء الدهليز ووضع على الأرض بين الحياة والموت حتى
ظن الجميع أن الحمار قد مات بيد أن الشباب طمأنهم إذ طلب
راساً من رؤوس البصل ، ولما جرى بها إليه سُطرها شطرين ،
ومن ثم ضغط عليها بين أصابع يده الواحدة فتساقط عصير
البصل نقاطاً سكبها الشاب في منخاري الحمار الذي ما لبث
أن فتح عينيه وحرك أذنيه وهز رأسه ثم نهض واقفاً كأنه لم
يحدث له شيء .. ولما رآه الشاب كذلك ورأى أن مهمته قد
انتهت ، مد يده وأزال عن قميصه بعض الأوحال التي تلوث
بها . وهم أن ينصرف بيد أن المعلمة ، التي ما زالت نظراتها
المبهورة ، وعميونها الجاحظة عالقة بذراعه وكتفيه لم تتزحزح ..
اقتربت منه وسألته قائلة :

- أتقطن أنت في هذا الحي ؟

فنظر الشاب إلى باب الغرفة الذي يجاور باب غرفتها تماماً
وقال :

- اننى أقطن هذه الغرفة ..

فأخذتها المفاجأة وهي تزم على شفتيها سريعاً ، وتكاد تغمض
عينيهما حتى لا تفضحها دهشتها :

- اذن انزع هذا القميص لكى أغسله لك .

فقال الشاب دون أن ينظر إليها وهو يفتح باب غرفته
ويتوارى خلفه :

- شكراً .. سوف أغسله بنفسى !

وهمت أن تدخل وراءه الغرفة وأن تقول له شيئاً ولكن
صوتاً خفيضاً جداً يكاد يشبه الهمس أقبل من وراء ظهرها
يقول :

- أأنفذ الحكم وأطرده .. أم ستراجع المحكمة نفسها ؟

فلم تلتفت إلى الأستاذ حسبو الذى كانت الابتسامة العريضة
تغير وجهه وترقص على شفتيه .. وإنما تركته وانصرفت إلى
غرفتها صامتة تنظر إلى شيء بعيد .

الفصل الحادى عشر

كان من الاشياء التى أخذها الشاب عن أبيه وتمسك بها وعاهد نفسه وربّه عليها ، أداء فريضة الصلاة فى مواعيدها . . وأن لا يصلى الفجر قضاء أبدا مهما كانت الاسباب . وقد أصبحت هذه عادة عنده ، فهو مهما كان متعبا ومهما كان مستغرقا فى نومه ، لابد أن يستيقظ فى ساعة محددة من الليل تسبق صلاة الفجر دائما بنصف ساعة على الأقل . ثم هو لا ينام بعدها ثانية .

وقد استيقظ من تلقاء نفسه قبيل الفجر فى تلك الليلة ، ونهض من فراشه وأشعل المصباح الزجاجى ذى البرنيطة التى صنعها له من الورق المجفف ، ثم وضع القبقاب فى قدميه وخرج الى الدهليز وفتح الحنفية التى أحدث صوت الماء المنساب منها فى البرميل صوتا مزعجا فى الليل أقلق المعلمة شفعات فى فراشها . ففتحت عينها فى الظلام ، ومدت أذنيها فى الليل . فسمعت صوت الشاب عند الحنفية يتوضأ ويردد الشهادتين بصوت عال . فضايقتها هذا بعض الشيء ولكنها مدت يدها وسحبت العطاء على وجهها ونامت ، بيد أنها عادت فاستيقظت ثانية عندما انتهى الشاب من وضوئه وعاد يدق بلاط الغرفة بالقبقاب الحشبي الذى فى قدمه . فأحدث القبقاب صوتا مزعجا أيضا نفذ الى أذنيها مباشرة ، فازداد ضجرجها ، وزاد من هذا الضجرج صوت وابور الغاز الذى أشعله الشاب ووضع عليه ابريق الشاي لكى يغلى الماء فى الفترة التى يقضيها فى الصلاة ، وضايقتها هذا كله ضيقا شديدا وأقلقها وأثار صخطها الى حد أنها راحت فوق الفراش تبحث نفسها وهى تتقلب كالسمكة فى الماء وتنام حينما على جنبها الايسر ، وحينما على جنبها الايمن ، وحينما آخر تسد أذنيها ، ومرة تغمض عينيها . وظلت كذلك حتى انطفأ وابور الغاز . وتلاشى صوته المزعج . فهذأت ثائرتها ومدت يدها الى الفطاء وسحبت على وجهها مرة أخرى ، وأغمضت عينها ونامت . بيد أن هذا النوم لم يمتد بها طويلا هذه المرة لأن الذى فعله الشاب - وكما تعود أن يفعله كل ليلة - أنه بعد أن خلاص من صلاة الفجر وصنع الشاي وأفرغه فى كوب أمامه جلس أمام المصباح ليذاكر فتناول ألفة ابن مالك . وكان حفظها بالنسبة اليه عسيرا للغاية . وقد زادها عسرا الشيخ زنائى - وكيل الكلية - الذى

حتم على طلبة اللغة العربية ضرورة حفظها فى خلال خمسة عشر يوما . حفظا جيدا مجودا وأن تفهم فهما . . مفهما . . ومعروفا معرفا . كما كان يقول - رحمه الله - لذلك جلس الشاب بعد أن خلص من صلاة الفجر متربعا أمام المصباح ، وراح يبدأ ويعيد ، ويتلو ويرتل ، وهو يهتز أمام المصباح ذات اليمين وذات الشمال ناسيا نفسه وهو يقرأ بصوت عال مسموع :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

واحد كلمة والقول عم - وكلمة بها كلام قد يؤم

ونفذ صوت الشاب الى أذنيها من ثنايا الباب الذى يصل بين الغرفتين والذى وضعت أمامه الدولاب لكى تسده نهائيا وتفصل بين غرفتها والغرفة الاخرى . فنفذ الى أذنيها خشنا أجسا بغيضا . أطار النوم من عينيها . وأقلقها قلقا كبيرا فثارت ثورة عنيفة وهبت من فراشها ساخطة . وفتحت باب غرفتها فى عنف . ووقفت فى فناء الدهليز تنادى بأعلى صوتها على حسبو ، لكى ينقذها من هذا الكرب . ولكن الاستاذ حسبو كان فى فراشه ، نائما ببذلته الخالدة وصديريه الممزق ذى الازرار الصدفية الغالية أشبه بتحفة أثرية يرجع عهدها الى عدة قرون . يقط فى نوم عميق . ليس من سبيل الى إيقافه منه ، حتى ولو انهدم الدهليز . أو سقط بهلول فى البئر مرة أخرى .

ولما بع صوتها دون مجيب . وغاظها ذلك جدا . وزادها سخطا على سخطها ، اندفعت فى ثورة هائلة ودفعت باب غرفة الشاب فانفتح على مصراعيه فأحدث دويا هائلا . ذعر منه الفتى ذعرا شديدا . وزأده ذعرا عندما وجد أمامه امرأة شبه عارية الا من قميص نوم رقيق . كاد يكشف عن الجسد كله . تدخل عليه غرفته فى الليل . وتسبه سبا مقزعا . جارح اللفظ قبيح المعنى :

- أنت تخرج الآن . فورا . أين تظن نفسك فى - منضه - حنيفة تفتح طول الليل . . قبقاب يندق على البلاط . كما تندق أرجل البغال . وابور غاز يشعل بصوت مزعج . . تقرأ بصوت كصوت الحمر ، وما تعيده تزیده كقفاء الجبانة . حرف يؤم فى قلبك وكلام يعم فى عنك . وعن الذن خلفوك .

واستمع الشاب الى كل هذا ذاهلا مأخوذا . حتى أنه من حدة دهشته البالغة لم يسمع أو يظن الى بعض العبارات التى

صدرت منها • بيد أنه نظر إليها بعد أن انتهت من هذا السباب
ولكنه ما أن رفع عينيه الى صدرها العارى وقميصها الذى
انشق من أمام عن فبة الثديين ، حتى رد البصر سريعا وأغمض
عينيه • وهو يحوقل ويتمتم بالفاظ من القرآن وكأنه يستغفر
عن ذنب كبير • ثم بعد جهد وبعد لحظات مضت استطاع أن
يسترد فيها أنفاسه • قال وهو يفتح عينه دون أن ينظر إليها :
- من حضرتك ؟

فقالت ساخرة وصدرها ما زال يعلو ويهبط من شدة
الغضب :

- عاشقة لك • مغرمه بك • متيمة لم تنم طول الليل من
أجل عيونك السوداء •

ثم استردت أنفاسها سريعا وقالت فى نفس الثورة
والغضب :

- أتريد أن تعرف من أنا • أنا صاحبة البيت • • صاحبة
هذه الميضة التى تسكن فيها •

فقال الشاب وعينه لم تهبط الى أكثر من وجهها الثائر
وشفاها المضطربة • ولكن فى غيظ شديد :

- وهل صاحبة البيت تكون على هذا الجانب من الوقاحة ؟
فغلى الدم فى عزوقها وهى تقول :

- أنا وقحة يا كلب •

- وغير مؤدبة •

فارتدت سحنتها اريدادا مقزعا وانحنى فى سرعة خاطفة على
قدمها اليمنى وتناولت الشبشب ذى الكعب العالى والردة
الحمراء • ورفعت ذراعها به فى وجهه وهى تقترب منه كلبوة
مفترسة وتتمثم بشفتين مرتعشتين :

- أنا قليلة الادب • يا ابن الكلب • • •

بيد أن الشاب لم يملها تتم • فقد كانت يده أسبق الى
ذراعها التى تريد أن تنهال عليه • وأمنك بما فى عنف •
وضغط عليها فى قوة وغضب حتى كادت الذراع تختنق بين
أصابعه الحشنة المتدثرة • فاضطربت المرأة ووقفت خائفة
ترتجف تنظر الى تلك الذراع القوية المتحجرة التى أمامها •
وتلك اليد التى تضغط على ذراعها حتى تكاد تعصرها عصرا •
وحانت مزمزا التقاتة الى كتف الشاب العريضة الصلبة التى
تشبه الفولاذ والتهارتا منذ ساعات تحمل الحمار فى يسر
وكانها تحمل دجاجة ، فارتعبت وخافت • وسقط الشبشب من

يدها وعند ذلك تركها الشاب . وقال وهو يبتعد عنها قليلا وينظر اليها شزرا :

— لو أن امرأة في قرينتنا فعلت هذا ، ورفعت الشبشب في وجه رجل . أيا كان هذا الرجل . لكان نصيبها القتل . ولكنني أنفي الآن بطردك .

ثم نظر الى باب الغرفة وقال وهو يشير اليها بالخروج :
— تفضلي .

فلم تجب بشيء أو كأنها كانت تريد أن تجيب بشيء ، ولكنها انفجرت على الفور باكية ترتعش ، وجسدها كله يضطرب ويهتز وكأنها خشيت أن تسقط ، فارتكنت الى الحائط وارتفعت بهذاتهما العاريتين ودفنت رأسها الصغير الجميل بينهما . ومن ثم راحت تبكي بكاء مكتوما . وتضطرب اضطرابا عنيفا . ونظر الشاب اليها ، والى جسدها الذي يغلي كالمرجل أمام عينيه . والى الدموع التي انسابت من عينيها وتساقطت على القميص قبللته . فخاف وارتبك بعض الشيء ، وانقلبت ثورته الى شفقة وغبته العيفة الى عطف كبير على المرأة المستضعفة أمامه . فاقترب منها وهو يحول ثانية ويتمتم بالفساط من القرآن مرة أخرى ، ويغمض عينيه ، حتى لا يبيع لنفسه ما حرم الله . ويرى ما أمر به الله أن يستر . اذا ما وقعت نظراته على ردفها البارزين الرجراجين اللذين أنسدل عليهما نسج القميص الرقيق . فزادها وضوحا كما يزيد غطاء المصباح نوره توهجا . ولذلك قال وهو ينظر الى بعيد وكأنه يخاطب شخصا آخر :

— هم تبكين .

فلم تجب وإنما استرسلت في بكائها المرير . فقال الشاب وهو أشد ما يكون أسفا :

— ان كنت في لحظة غضبي . قد أسأت اليك . فاني أعذر وأرجو من الله ومنك المغفرة على هذا الذنب الذي لم تكن لي يد فيه .

فرفعت صدرها الملتصق بالحائط ، ونظرت اليه بعينيها المحمرتين الفارقتين في الدموع وقالت بصوت حزين أثار شفقة الشاب الى حد كبير :

— انني أبكي حظي العاثر ، وبختي المائل ، ونصيبى الذى هو أشد سوادا من الليل . اننى امرأة شرسة الطباع ما فى ذلك شك . أسىء الى من يحسن الى . وقد أسأت اليك رغم الحسنة التى قدمتها لى ، ورغم أنك أنقذت بهلول من الموت .

ولكن هكذا أنا فاعذرنى • ان الايام ، والليالى ، وسوء الطالع الذى يلازمنى دائما ، وحظى العاثر مع كل الذين يحيطون بى • كل ذلك جعلنى مرهقة دائما ، مجهدة الاعصاب دائما • آتفه الاشياء تثيرنى وتقلقنى ، وتسبب لى النكد الشديد • وكذلك أيضا آتفه الاشياء تضحكنى وتسعدنى ، وتطربنى طربا شديدا • أنا أشبه ما أكون بطفلة ، بامرأة لا عقل لها • ان الذى يعرفنى لا يفضب منى أبدا • وانما يشفق على دائما •

ثم استرسلت فى بكائها حينما آخر ، واستطردت :

— ولكن لا أحد يعرفنى ، ولذلك الكل يسئ الى ، والكل يفضب منى •

ثم صمتت لحظات أخرى ، جفعت فيها دموعها وقالت فى صوت خفيض جدا ، حزين جدا :

— أنا امرأة شقية • أنا أشقى امرأة قدر لها أن تعيش فى هذه الدنيا •

وتأثر الشاب ، وقال وهو يمد يده ويتناول الكاولة الكشمير من على المسمار وي طرحها على جسدها • الذى كاد أن يتعرى أمامه بعد أن سالت الدموع على قميصها ولصقت نسجه الرقيق على البطن دون أن تظفن هى الى ذلك :

— انك مسكينة •• الى هذا الحد تشقين فى حياتك •

— وأكثر من هذا الحد •

— وما السبب فى ذلك •

— كل شيء • كل شيء •

— أسرتك مثلا :

— لو كانت لى أسرة • ما كان هذا حالى •• قلت لك انى

شقية • لا أب • ولا أم • ولا أخت • ولا حتى قريب أتفيا بظله •

— وزوجك ؟

فانفجرت باكيا عنيقا ، حتى راح جسدها يضطرب ويعلو ويهبط تحت الكاولة المنطرحة عليه • وظلت كذلك الى حين دون أن يجزئ الشاب على أن يقول لها شيئا ، أو يخرجها من هذه الحى التى انتابتها الى أن رفعت اليه وجهها الغارق بالدموع ونظرت اليه بنفس العينين المحمرتين اللتين بلون الدم وتمتمت بصوت يكاد يحترق ، وهى تزيع الدموع التى تجمعت على شفيتها :

— زوجى مات •

— عظم الله أجرك •

— ٦٠ —

نطقها الشاب في حزن شديد ، وألم ارتسمت معالمه على وجهه وهو يصنعى إليها وهي تتحدث مستطردة :

— مات من سبع سنوات كاملة وأنا أعيش في ظلام ، أرى كل شيء ولا أرى شيئاً • أضحك لكل شيء وما عرفت الابتسامة طريقها إلى قلبي • وأعيش في الدنيا ، ومع الناس وليس لي أحد في الوجود • كان هو النور الذي أفتح عليه عيني والهناء الذي يعيش عليه قلبي كان هو الوجود كله • ولكنه مات •

فنظر إليها انشباب وقال لها :

— انك طيبة القلب إلى حد كبير •

— ولكنهم يقولون غير ذلك •

— لهم ما يقولون • والله القول الفصل ••

— ترى هل سيغفر لي الله هذه الأخطاء وهذه المعاملة

القاسية للناس ؟

— طالما أنك تحملين هذا القلب الطيب • وهذه السريرة

التقية وهذا الوفاء الذي لا حد له لزوجك فتقبي ان الجنة مثواك

انشاء الله •

— هل ستغفر أنت لي خطاي معك اليوم ، وتهجمي عليك ،

وغلظتي لك في القول ؟

فقال الشاب في ابتسامة صادقة تألقت على شفتيه :

— وهل يملك الابن الا أن يغفر لأمه كل شيء ••

فنظرت إليه وقد أثارها على الرغم منها هذا التشبيه • وكاد

ينفجر معين غضبها مرة ثانية • ولكنها أسرع وتخنقت هذه

الثورة في صدرها وقالت مبتسمة :

— وهل أنا مثل أمك ؟

فقال الشاب في سداجة لا حد لها :

— ثقي انه من الآن لا فرق عندي بينك وبين أمي ••

فقال ناهضة وهي تضحك في غيظ • وتزيح الكاكولة من

على كتفيها وتعيدها إليه :

— اذن أمك عجوز جدا •

ففطن الشاب إلى الخطأ الذي تورط فيه • وقال على الفور

يجاريها في ضحكاتها وهو يغمض عينيه ويشيح بوجهه حتى

لا تقع نظراته على القميص الملتصق على البطن :

— أقصد في المعاملة • وليس في السن طبعاً •

فقال وهي تمد يدها لتصافحه وتصرف :

— انك أنت أيضاً طيب القلب جدا •

ثم قالت وهى تشير بيدها الى الباب المغلق الذى يفصل بين
الحجرين :

— اننى جارك وهذه هى غرفتى ، وأى شئ تحتاج اليه
تجده فى الحال .

فقال الشاب :

— هذا فضل منك . والله أرجو أن يجزيك عنه خير الجزاء .

فنظرت اليه وشئ يلتصق فى عينيها . ثم قالت ضاحكة وهى
تخرج ويرد الباب :

— أهدأ كل المجاورين لابد أن يتكلموا بالنعوى .

وأخرج الشاب هذا الفول — المجاورين — واحمر له وجهه
خجلا . وأراد أن يهم خلفها ويقول لها شيئا ويصحح لها
الوضع . ويفهمها بأنه ليس مجاورا فى الازهر كما تظن ، وانما
فى سنوات التخصص . وعما قريب سيصبح مدرسا للنشء
معترفا به من وزارة « المعارف » ويفهمها غير ذلك أيضا .

يفهمها أن المجاور فى الازهر لا يستحق منها هذه السخرية فهو
رجل علم ، ودين ، وصلاح ، وتقوى . وليس هو كما تظن
— ففى — من الذين يتسولون بكلام الله وآياته المحكمات .

وراح بينه وبين نفسه يعجب من هؤلاء الذين يحملون فى
نفوسهم كل هذه السخرية للمجاورين فى الازهر الشريف
وطلاب العلم والدين . وكيف أنهم بهذه السخرية وهذه النظرة
المزرية له ، يرتكبون اثما كبيرا وهم لا يشعرون . وراحت
هذه الافكار تلهم به ، وتثقل عليه وهو يرتدى ثيابه ليخرج
بيد أنه قبل أن يخرج سمع طرقا على الباب وسمع صوت
الاستاذ حسبو يناديه فأسرع وفتح الباب وسمع صوت
الاستاذ حسبو مرتديا ملابس حتى اندهش . وسأله لماذا
استيقظ هكذا مبكرا وارتدى ثيابه أيضا ، وأين هو يريد أن
يذهب فى هذا الوقت المبكر . فأخبره الشاب بأنه تعود دائما
أن يستيقظ هكذا كل يوم ليصلى الفجر ، وأن يخرج أيضا
مبكرا لانه تعود كذلك أن يذهب الى الكلية مشيا على قدميه .
ليوفر أجر الترام الذى لم يدخل أجره فى حسابه . فاندھش
الاستاذ حسبو وقال مشفقا وهو ينظر اليه :

— ولكن المسافة طويلة جدا يا بنى . ولا أحسبك قادرا على
أن تقطعها على قدميك فى الذهاب والاياب كل يوم .

— الله يعين .

ثم قال فى ثقة وإيمان :

— وهو سبحانه وتعالى ، قد وهبنا الصحة من أجل ذلك
من أجل أن نستعين بها على هذه الصعاب .

فقال الاستاذ حسبو وهو يتناول نصف رغيف كان أمامه
على انطبلية بجوار كوب انشاي الفارغ ويقضم منه :
- ادن في نصيحه ، يتوقف عليها مصيرك في هذا البيت ،
بعد أن ثبت الله أقدامك فيه بفضل بهلول :
- خيرا • ما هي ؟

فقال الاستاذ حسبو وهو لا يزال يقضم من نصف الرغيف:
- ما دمت تستيقظ كل يوم مبكرا هكذا ، فعليك أن
لا تحدث ضجيجا في الغرفة ولا في الدهليز • فمثلا الحنفية
لا تفتحها الا بمقدار حتى لا تحدث صوتا ، ولا تسير بالقباب
على البلاط ، وان ذاكرت بعض دروسك فبصوت خافت • حتى
لا تقلق المعلمة في نومها ، فتقلب لنا البيت رأسا على عقب •
فقال الشاب ضاحكا على الفور :

- وكادت أن تقلبه فعلا انيوم ، لولا أن الله سلم •
فقال الاستاذ حسبو فاغرا فاه :

- هل أقلقت المعلمة ؟

- لم أقصد •

- وماذا فعلت • قل •• أسرع •

- اقتحمت على الباب وأغلظت لي في القول وبلهت بها القحة
بان رفعت الشبشب في وجهي • ولم تلق به الا عندما هممت
بضربها •

فارتعشت شفتا الاستاذ حسبو وهو يسأل ذاهلا :

- تضربها • تضرب من ؟

فقص عليه الشاب كل الذي حدث • وكيف انهما تصالحا •
وخرجت راضية وكيف انها ست طيبة القلب • لا تضمر
سوءا • وان كان مظهرها يدل على غير ذلك • الى أن أنهى
الشاب حديثه قائلا :

- انها فعلا • سيدة طيبة القلب الى حد كبير حتى أنني
وضعتها في منزلة أمي •

- أمك !؟

نطقها الاستاذ حسبو وهو يتلفت حواليه كمن يريد أن
يستغيث • ثم أسرع الى الشاب وأمسك بذراعه ، وسحبه الى
وكن قصي بعيد عن البابين حتى لا يسمعه أحد ، ثم همس في
أذنه وهو ما زال يتلفت حواليه في خوف شديد :
- انك مغفل •

ولم يدع الشاب يقول شيئا لانه استطرد :

- انها افعى • ثعبان كبير • حشرة مؤذية • سم بطيء •
مرض خبيث •
ثم تلفت حواليه مرة اخرى وهو ممسك بذراع الشاب
وواصل قوله :
- انها تماما كالقنبلة التى لم تنفجر • من الخير للناس
جميعا أن يبتعدوا عنها • أن يتجنبوا خطرها وأذاها • لو أدى
بك الامر أن تبطل صلاة الفجر هذه ، حتى لا تفتح الحنفية ،
وتدق بالقباب على البلاط فتقلقها ، فسوف يغفر الله لك • لانه
أشفق بعباده من ان يكتنوا بنارها •
ثم تلفت حواليه ثانية وأراد أن يقول شيئا آخر • ولكن
الكلمات وقفت فى حلقه ، وجحظت عيناه وارتعشت يده
الممسكة بذراع الشاب وهو يصغى الى صوتها الجهورى فى
الدهليز • وهى تنادى فى عصبية :
- حسبو • يا هباب يا حسبو • يازفت • يا حسبو •
وكما ينطلق السهم ، انطلق الاستاذ حسبو متدهور
الانفاس •

الفصل الثاني عشر

خرج الشاب بعد هذا الحديث القصير بينه وبين الاستاذ حسبو . يفكر بعض الشيء لا فى هذه المرأة وما قالته له أو قاله عنها الاستاذ حسبو . . لأن الامر سواء كان هذا أم ذاك فهو لا يعنيه فى شيء وانما الذى فكر فيه هو معاملتها هذه القاسية للاستاذ حسبو . وثورتها دائما عليه . وغلظتها له فى القول كلما رآته أو تحدثت معه . بيد أن التفكير فى هذا سرعان ما نسيه أيضا . اذ شغل عنه بالفية ابن مالك التى راح يقرأها فى سره وهو يسير فى الطريق . وسره أن وجد نفسه قد حفظها وحفظها جيدا مجودا وفهمها أيضا فهما مفهما كما يريد الشيخ زناتى . وقد أبهجه ذلك الى حد كبير . . وجعله يتذكر أمه ، ودعواتها الصالحة اليه . . والتميمة التى طلبت منه أن يحتفظ بها فى جيبه وفكر فى أن يكتب لها خطابا . . يطمئنها عليه . وعلى النجاح الذى أصابه حتى الآن . فى السكن . وفى معرفة الاستاذ حسبو وصادقته به ، وحبه له . وفى الكلية وتعلقه بدروسه . وحفظه لالفية ابن مالك حفظا جيدا مجودا . فكر أن يكتب اليها بكل هذا ولكنه تذكر الاستاذ الشرنوبى أبا اسماعيل . وزوجته الست صبرية . وابنتهما سلوى . وفى الخطاب الذى فى جيبه اليهم ، والسلام الذى حملته أمه للرجل وأسرتة . فكر فى كل هذا . وفى ضرورة الكتابة الى أمه . ولكن بعد أن يقوم بهذه الزيارة عصر اليوم . ولذلك عندما خرج من الكلية لم يذهب الى البيت . وانما ذهب الى العباسية وراح يسأل عن الوايلية الصغرى وشارع (. .) والبيت رقم (. .) بيد أنه عندما عثر على البيت . وبدأ يصعد السلم انتابته أحاسيس كثيرة وأحس بشيء من الاضطراب ، حتى أنه وقف لحظات على السلم . وفكر فى أن يرجع من حيث أتى . وأن يرجع هذه الزيارة الى فرصة أخرى . . لانه لم يطمئن الى أشياء كثيرة . ولانه يخاف أيضا من أشياء كثيرة . . هل سيستقبله الاستاذ الشرنوبى بالترحاب الذى ينتظره . أم أن السنين الطويلة التى فاتت . والمركز الكبير الذى يشغله فى وزارة المعارف العمومية . . والايام التى

من طبيعتها أن تغير كل شيء ، ستغير من الرجل • وستجعله
يستقبله - ان استقبله - فى فتور وعدم ترحاب • وسينظر
اليه - ان نظر - من أعلى ، كما ينظر أهل السماء الى أهل
الارض ؟ والست صبريه زوجته • هذه السيدة الطيبة القلب
الكريمة الخلق ، هل سئلناه كما كانت تلقاه وهو طفل فى
الحارة • هاشة بأشة مرحبة • تأخذه بين أحضانها وتقبله •
وقملا له جيبه بالحلوى • أم غيرت الايام حالها • وترفض حتى مجرد
الترحيب • وسلوى • وما أن ذكر الاسم وجرى به لسانه •
حتى اضطرب وتعالق دقات قلبه وشعر بما يشبه الخوف يلم به
ويطبق على أنفاسه • ترى ألم تزل هى الاخرى كالعهد بها
طفله لم نزد عن أمس الا اصبحا كما قال الشاعر • أم
كبرت ونضجت ، وأينع فرعها • ورق عودها • وغدت ست
- مصراوية - متحضرة • فيصعب عليها معرفته ان رآته ، أم
ستذكره وتذكر أيامه والقرية والزقاق والحارة • وليالى الجرن •
وفوائيس رمضان • والاستغماية • والحلقة والمضرب وو • • •
وأحس بأنفاسه تطبق عليه مرة أخرى • أم أنستها الايام
والسنون هذا كله ؟ هل ستعرفه هل ستلقاه • هل سيعرفها
هو • هل سيلقاها ، ويتحدث اليها وتتحدث هى اليه ؟ وحانت
منه التفاتة وهو يصعد السلم متخاذلا الى قدمه فرأى الحذاء
الاصفر الفاقع والابزيم الذى ينام ملتصقا على جانبه • فشعر
بشيء من الارتياح • وزادته هذه الراحة اطمئنانا وهو ينظر
الى الكاكوله الكشمير الفضفاضة التى تزين طوله الفارع وقوامه
الممشوق وازداد اطمئنانا أيضا عندما رأى على امرأة خاطره •
عمامة البيضاء التى تزين رأسه وشالها المزهر الابيض الناصع
البياض الذى يلفه حولها • وكان قد وصل الى باب الشقة • •
ووقف أمامه • فبسمل وقرأ بعض آيات قصار من سورة الحجرات
تعود أن يقرأها ، كلما أراد أن يخرج من حرج ، ومد يده
وضغط على الزر الكهربائى ووقف ينتظر • وكل حواسه
عيون متجهة الى الباب • ومد يده مرة أخرى ليضغط على الجرس
ثانية ، بيد أن الباب فتح فجأة وظهرت عليه غادة حسناء لم
تر العين أجمل منها • وما أن رأت أمامها رجلا عملاقا فارع
الطول • حتى اضطربت وردت الباب سريعا فى وجهه وهى

تسأله من خلف الباب • ماذا يريد • فلم يجب على الفور • بل لم يجب إطلاقا لانه ارتبك ارتباكا شديدا وشجع بالحجل والحزى يكتنفانه لانه ظن نفسه قد أخطأ في العنوان • بيد أنه عندما سمعها تعيد عليه السؤال مرة أخرى ونسال من هو وماذا يريد • وهل هو فعلا يتصد هذا البيت بالذات • استطاع أن يحرك شفتيه ويتم بصوت خفيض كاد أن يتلاشى قبل أن يبلغ أذنيها الواعيتين :

— أليس هذا هو منزل الاستاذ الشرنوبى أبو اسماعيل •

فأجابه انصوت الانثوى الرقيق من خلف الباب :

— أجلى • من حضرتك ؟

— أنا • امام ••

— من •• امام ••

فاضطرب الشاب اكثر وهو يقول :

— امام بلتاجى حسنين • من الباتنون مركز المنوفيه •

فعدت الدهشة لسنان الفتاة وهى تفسح لعينيها فرجة فى الباب وتنظر انيه دهشة مستغربة :

— امام ابن خالتي آمنة ؟

ولم ينطق الفتى بشئ لازها كانت قد اندفعت اليه ناسية نفسها حتى كادت ترتمى فى أحضانها وتعانقه فى شوق زائد وحرارة • وهى تسحب من يده سريعا الى الداخل • والفرحة تكاد تطير صوابها • حتى أنها تركته واقفا فى قلب صالة البيت الفسيحة حائرا أين يجلس • وراحت تركض فى طفولة وهى تنادى صارخة فى فرحة لا حد لها :

— ماما • ماما • امام ابن خالتي آمنة •

وخرجت الست صبرية التى تقدمت بها السن بعض الشيء من المطبخ وكانت تحمل فى يدها مصفاة تلوك فيها بعض حبات الطماطم وهو الشراب المفضل عند الاستاذ الشرنوبى • ومما أن رأت امام حتى ألقت بالمصفاة سريعا • ومسحت يديها سريعا أيضا فى ثوبها المنزلى الفضفاض • وتلقفت الشاب فرحة بين أحضانها وعانقته وقبلته كما كانت تعانقه وتقبله وهو صبي يلعب مع سلوى فى الحارة • ثم راحت مرة أخرى تعانقه وتقبله

وهي تقول في غبطة وسرور وعيناها تتفحصانه من الرأس
للقدم :

— صلاة النبي • صلاة النبي • شباب وجمال • وطول
وعرض •

ف قالت سلوى وهي لا تكاد تملك نفسها من السعادة :
تصورى يا ماما أننى لم أعرفه عندما رأيته • وكدت أغلق
الباب فى وجهه :

وكان هذا اللقاء الكريم قد أطرب الشاب الى حشد كبير
فقال مسرورا وهو ينظر الى سلوى • وكأنه ينظر الى شىء ينير
عينيه :

— أنا أيضا لم أعرفك حتى اننى خشيت أن أكون قد أخطأت
العنوان •

ف قالت الست صبرية وهي تجلسه بجوارها على الكنبه
مرحبة :

— عمر • سبع سنوات • من أيام إلباتنون للآن •

وجلس الثلاثة يتحدثون ، عن الزمن والايام ، والسنوات
السبع التى مرت وقفزت بسلوى وامام ، من الطفولة الى
الشباب • كما راح الشاب يحدث الست صبرية وسلوى عن
القرية وأهلها و وفاة والده • ومرض والدته ، وداء الكبد الذى
يعاودها من حين الى آخر • وكلما امتد الوقت بالشباب وأراد
أن ينصرف ألحت عليه سلوى فى البقاء ، وأقسمت الست
صبرية عليه أن يظل حتى العشاء ، وحتى يحضر الاستاذ
الشرنوبى الذى سيسر كثيرا لرؤيته والذى كان دائم السؤال
عنه ، وعن أخباره ، وبلغ من حرص سلوى على بقاءه أنها

غافلته • وسرقت منه — العمامة — التى كان يضعها بجانبه على
أحد المقاعد حتى لا يخرج • وظلوا كذلك الى أن أقبل المساء •

وعاد الاستاذ الشرنوبى من الخارج وما أن دق الجرس وعرفت
سلوى انه والدها حتى راحت فى طفولة وسرور تعد له مفاجأة
•• اذ تركت الشاب الذى كان يجلس معها فى الصلاة •
وأسرعت تفتح الباب لوالدها ثم اختبأت خلف الباب دون أن
يراها والدها أو يراها الشاب وما أن دخل الوالد الى الصلاة

ورأى رجلا غريبا فى البيت حتى وقف مبهوتا • يسأل من هو ولولا الضحكات التى لم تستطع أن تكتمها سلوى وانطلقت منها مدوية خلف الباب ، لتخرج موقف الشاب • وكما استقبلته سلوى ، واستقبلته أمها ، استقبله أيضا الاستاذ الشرنوبى • وراح يهنئه على نجاحه الكبير فى الدراسة • وكيف أنه حقق رجاء والده رحمه الله فيه • وكيف أن الاستاذ الشرنوبى كان يعرض دائما على تتبع أخباره أولا بأول • ولذلك ساء جدا عندما عرف من الشيخ فراج عمدة الباتنون - الذى قابلته مصادفة فى ميدان الخازندار وشرب معه فنجانا من القهوة - أن امام هنا فى القاهرة منذ زمن ولم يتصل به • وراح الاستاذ الشرنوبى فى حنان الاب ووفاء الصديق ، يرحب بالشاب ويسأله عن مدرسته ودروسه وسكنه الجديد • وعما يحتاج اليه من مساعدة ولما قدم له الشاب الخطاب الذى كان قد أملاه له الشيخ نوفل • وأوصته فيه أمه خيرا بابنتها ، وذيلته بكلمتين من عند الشيخ بسيونى مأذون الشرع • وقرأه الاستاذ الشرنوبى • وتأثر جدا ، اذ استشعر من ثناياه مدى ما يعانيه الشاب من فقر بعد وفاة والده ، ومدى حاجته الى المعونة الصادقة فى القاهرة الواسعة ، التى يتخبط فى خضمها كل فقير معوز يطلب العلم فى معاهدها • وود الرجل أن يقترض الشاب قرضا حسنا يعينه على حياته الشاقة وضيق ذات اليد الذى يقاسيه • بيد أنه خشى أن تؤلم هذه المعونة الشاب وأن تحدث جرحا فى نفسه وكرامته وعزته الريفية التى يفخر بها • ولذلك عرض الامر على زوجته الست صبرية وتفاهما فى الامر • ثم اتفقا على حل يجنب الشاب هذا الحرج ويحفظ له كرامته وعزته وكبرياه • وهو أن سلوى فى حاجة الى دروس فى النحو واللغة والدين ، وأن الشيخ الحزرجى يعطيها هذه الدروس مرتين فى الاسبوع نظير مائة وخمسين قرشا ، فلماذا لا يستعاض بالشاب عن هذا الشيخ • والشاب أقرب صلة بهم وأكثر مودة لهم • وهو للفتاة بمثابة الشقيق وللبيت بمثابة أحد أفراد أسرته • ورحب الاستاذ الشرنوبى بفكرة زوجته الصائبة • وشكرها عليها ومثلها لها ضاحكا كما كان يمثل لها دائما

افكارها الصائبة التي كانت تواتيها من حين الى حين . بانها
كالساعة المعطلة دائما تمر عليها لحظة ما تكون فيها اضيق
ساعات العالم . واسرع من فوره وعرض الفكرة على الشاب ،
بدون أن يشعره بالهدف الذي يرمى اليه من ورائها فرحب
بها الشاب ترحيبا كبيرا وأعدّها مفخرة له وشرفا كبيرا أن يكون
أستاذا لابنة استاذ ومربيه .

وقضى السهرة في تلك الليلة في بيت الاستاذ الشرنوبى
وتعشى مع الاسرة وظل معها الى وقت متأخر من الليل . يتحاجون ،
ويسمر . كما كان يتحدث ويسمر بين أمه وأبيه . ثم انصرف
على أن يعود أول الاسبوع القادم لبدأ دروسه مع التثناة . .
وودعته الاسرة بحرارة ، كما استقبلته . فرحة به كما لو كان
ابنا لها عاد من عيب طويلة . وبعد ان انصرف الشاب ، وجدت
الست صبرية نفسها تسال زوجها عن مستقبل الشاب ومركزه
في الهيئة الاجتماعية . بعد أن ينال شهادة انتخبته في الوظيفة
المحترمة انتى سيتقلدها . والمرتب الذي سيتلزم به الدولة
اليه ولما أجابها الاستاذ الشرنوبى على كل سؤال . وكانت
اجاباته جميعها فيها ما يطربها ويثلج صدرها . اطرقت قليلا
ثم نظرت اليه وكأنها واثقتها فكرة من تلك الانكار الصائبة
التي توافيها من الحين الى الحين . والتي هي عند الاستاذ
الشرنوبى . في أحكامها واصابتها أشبه بالساعة المعطلة دائما .
وما أن أشرفت عيناها نورا بالفكرة . حتى أحست سلوى بما
ترمى اليه الام . فتورد خذاها . وانصرفت خجلة الى مخدعها
متعثرة الخطوات مضطربة الفؤاد وتسلفت الى فراشها الدافئ .
الوثير وانطرحت عليه مغمضة العينين . مسيلة الهدبين الطويلين
.. ومن ثم راحت تستعيد حوادث كثيرة وأحداثا جمة . يرجع
العهد بها الى ما قبل سبع سنوات أيام ان كانت طفلة تعيش
في قرية الباتون وتقطن زقاق المرعشلى وتلعب في الحسرة
ليالى رمضان ساهرة في الجرن تلعب الاستغمايه . . وجماله
المالح . . وحلقه ومضرب الكرة والجورب . . والكرة التي
. وفجأة زمت شفتيها وجحظت عيناها وظلت كذلك جاحظة
العينين . الى أن غلبها النوم فنامت مطبقة العينين على هذه
الاحلام الجميلة وعلى هذه الذكريات التي يعيش عليها دائما
الانسان أكثر العمر ان لم يكن العمر كله .

الفصل الثالث عشر

فى حياة بعض الناس ، فى أحاسيسهم ومشاعرهم أشياء كثيرة غريبة الشأن . أشياء ليست مجذولة لديهم . وليست أيضا معروفة عندهم فهى أشياء تعرف ولا تعرف نجبها ونحس بها ونكاد نلمسها بأيدينا ونراها بأعيننا ولكننا لا نعرف شيئا عنها . ما هى . ما سرها . ما حقيقةها إنما أشبه بالخيط الدقيقة التى لا ترى والتى تربط بعض الناس ببعض الآخر . وتضلل بينك وبين الآخرين فى

المشاعر والأفكار والأحاسيس التى نعبئ عنها أحيانا بفولنا بين القلب وانقلب رسول . وهذا الرسول دائما ما يكون رسول حق وصدق ، لا يعرف الكذب ولا النفاق وهو أن همس فى اذنك بشئ . إنما يهمس لك بما فى قلب الآخر . فان كان صدقا وإخلاصا نقله اليك صادقا . وأن كان بغضا وكراهية نقله اليك أيضا صادقا . لا يزيده شيئا . أو ينقص منه شيئا وأحس الفنى وهو يسير فى الطريق ، بأن شيئا ما يبهجه . ويفيض عليه . ويفر فؤاده ومشاعره . ويكاد يربط تلك

المشاعر وذلك الفؤاد بسعادة ضخمة . سعادة جعلته يسير فى الطريق مرحا . خفيفا يكاد يطير بجناحين انه يضحك ويبتسم ويسير ويقفز وينظر ذات اليمين مرة ، وذات الشمال أخرى انه يريد أن يقطع كل الطرقات . ويرى كل المارة . ويمتدح عينيهِ بكل شئ ، بالمركبات التى تروح وتجيء ، بالانوار التى تتألق فى عينيهِ . انه لا يريد أن ينام . انه لا يريد لهذا الليل أن ينقضى انه يريد الآن أن يرى أمه . أن يرى الشيخ نوفل . الشيخ بسيونى ماذون الشرع ، كل من يحب . يريد أن يرى الذين يحبونه جميعا . ولكنهم الآن

فى الباتنون . وهو فى (مصر) . مصر الواسعة مصر أم الدنيا مصر التى كان يسمح عنها فى الكتب ، وتذكر الذين عرفهم من أهلها . وذكر عدة أسماء . وتذكر محمد بن ولو كانت المدينة المنورة . ومسجد سيدنا الحسين الذى يجاورها وكان قد بلغ ميدان - العتبة الخضراء وأحس برغبة شديدة

فى أن يرى محمدين وأن يجلس اليه • ويتحدث معه وهو يشرب الشاى • وسأل أحد المارة فدلّه على الطريق • وراح وحده فى الليل يقطع شارع الازهر الى أن بلغ المسجد • فعرف اللوكانده من تلقاء نفسه • • واستقبله محمدين استقبالا جميلا • • وجلس معه يتحدث ويشرب الشاى ويقص عليه قصة اللقاء الاول بعد سبع سنوات لسلوى ووالدها الست صبرية • • ووالدها الاستاذ الشرنوبى • ورأى محمدين النور الذى يتألق فى عينيه وهو يتحدث ، والفرحة التى تغمر فؤاده وهو يذكر اسم سلوى • ففطن الى شىء • ولذلك قال له وهو يناوله كوبا من الشاى أخرى :

— عليك اذن أن تسهر الليل بطوله • ولا تنام فى النهار الا قليلا • •

فأجاب الشاب مستغربا :

— لماذا ؟

— لكى تستطيع أن تحصل على الشهادة •

فاندعش أكثر لهذا الحديث الدخيل الذى لا صلة له بما كانا يتحدثان فيه وقال وهو ينظر اليه مستغربا جدا :

— وما الصلة بين حصولى على الشهادة • وحديثى معك عن سلوى وأسرتها ؟

فقال محمدين ضاحكا :

— اذا استطعت أن تحصل على الخمسة قروش • استطعت أن تنام فى لوكاندة المدينة المنورة • أما اذا حصلت على الشهادة استطعت أن تحصل على سلوى •

فارتبك الشاب واحمر وجهه خجلا • وكاد كوب الشاى يسقط من يده ، لولا أن محمدين فطن الى ارتباك فقام ، وهو ينهض وينهض معه :

— ما رأيك لو صلينا الفجر فى ميدنا الحسين ؟

فزالت ربكة الشاب • وظهر الارتياح على وجهه • وراح يسير بجواره فى الظلام • ويخترق معه فى صمت رُقاق الفحامين الممتد خلف المسجد مباشرة • الى أن دخلا المسجد ، وذابا فى زحمة المصلين • ولما انتهت الصلاة ، وودع الشاب صديقه محمدين • وجد نفسه وهو يودعه يضغط على يده ،

ويشكره من كل قلبه شكرا حارا • لا على اللحظات الجميلة التي
قصصها معه ولا على كوب انشاي الذي قدمه اليه • وان كان
محمدين ظن ذلك • ولكن حقيقه هذا انشكر الحار كانت لاشياء
اخرى كثيرة هامة نمت نظره انها محمدين بكلمة عابرة •
- اذا حصلت على انشهادة • استطعت أن تحصل على
سلوى •

فانطبعت على ثغره ابتسامة عريضة كادت تنير وجهه كله •
وتنير أيضا الطريق أمامه • بيد أنها سرعان ما أخضت في
الغيب اذ اكتنفها بعض انغام اندى تمثل له في الشهادة
نفسها • والطريق اليها • وسبيل الحصول عليها • وتلك
الطلاسم العديدة - الكنز على الدر المكنون - الرسالة التفسيرية
في التوحيد - حاشية اليازجي في المنطق - هذه الكتب التي
ليس فيها من الجمال أو اليسر غير أسمائها فقط •

وأراد أن يقول لنفسه شيئا ، بيد أنه كان قد بلغ البيت ،
فمد يده الى ذلك الجزير الطويل ، ورفع به سقطة الخوخة في
حذر شديد حتى لا يسبب للمعلمة المستغرقة في نومها في
الغرفة المجاورة قلقا أو ازعاجا • ثم اخترق الدهليز على أطراف
قدميه في الظلام • حتى بلغ باب غرفته ، فأدار مفتاحها في
حذر ورفق • وما أن عاد فأغلقه أيضا في حذر • ورفق • حتى
تنفس الصعداء ، وراح في ظلام الغرفة لأنه لم يشأ أن يشعل
مصباحها الزجاجي • ينزع ملابسه ويبدأ في هدوء واطمئنان
وسعادة طاغية لم يستشعرها فؤاده منذ زمن بعيد • ولما وضع
ملابسه في أماكنها المعدة لها • العمامة في السقف المغطى بالورق
السميك ، والكاكولة على المسمار • والحذاء في مكانه من
الأرض • ولما اطمأن الى ذلك كله ، استلقى على سريره كما
تعود أن ينام عاريا الا من سرواله الطويل الذي تنسدل أطرافه
الى ما بعد الساقين • وبقي صدره العريض عاريا تغطيه تلك
الطبقة السوداء من الثشعر الكث الحشن • ومن ثم راح وهو
مستلقي على ظهره يسبح في دوامة من الاحاسيس الجميلة
والآمال العراض • والاماني العذاب • وهو يستعرض بعينيه
الواسعتين المعلقةتين في الهواء بسقف غرفته الرطبة المظلمة •
شريط حيساته الطويل • • القرية • • دهليز المرعشلي • •
الزقاق • • عم نوفل • • طبيلة المسحراتي • • الجرن • •
فوانيس رمضان • • سلوى • • الثلاث بيضات التي سرقتها • •
الحلوى الطحينية التي ابتاعها لسلوى • • الضربات التي سددتها
له أمه • • طبلية العملة • • ورك الدجاجة • • السطح • •

كومة التبن • وفجأة ، زم على شفثيه وتصلبت أصابعه الخشنة
وهو يفرسها فى الوسادة النائم عليها • وعيناه تبرق بريقا
خاطئا • وأنفاسه نترى لاهنة متقطعة • فيعلو منها صدره
وينخفض • وهو يستعرض حادث الكرة التى سرقتهما سلوى ،
وخبأتها فى صدرها ذات يوم •

وظل كذلك لحظات يعلو فيها صدره ويهبط • وتبرق عيناه
وتلتصع • وتترى أنفاسه وتنقطع • الى أن اكتحلت عيناه
بالسواد وغامت نظراته خلف سحابة من الخيالات المتشابكة التى
لم يستطع أن يتبين منها شيئا • الى أن أطبق عينيه وأطبق
أيضا شفثيه وسبح فى نوم عميق • وما زالت أصابعه الخشنة
مطبقة على الوسادة مفروسة فى حشيتها •

الفصل الرابع عشر

المرء بأعصابه • هذه حقيقة مقررة ولكنها أبدا لم تكن الحقيقه كلها • لأن هناك قوة غير عاديه هي التي تتحكم فى هذا العضو المادى ، أو هذه الانضاء التي يتدون منها العصب على حد قول الاطباء •

وهذه القوة غير العادية لم يعرف لها اسم محدد حتى الآن • فتارة هي الاحساس ، وتارة هي الشعور ، ومرة هي الغوادر ، وأخرى هي العواطف • ولعل هذا الاسم الاخير هو اقرب الاسماء اليها • لاننا فى حقيقة الامر نعيش بعواطفنا • وان عواطفنا هي التي نتحكم فى أعصابنا هذا التحكم المريع ، وهي التي تجعلها بلا أدنى سبب ترغى وتزيد وتثور الى درجة الغديان ، وهي نفسها ايضا التي تجعلها قهراً أو نطمن وتهدى الى درجة الصفر •

ونقول بلا أدنى سبب • لان نظرة عابرة تلقينا عينك مصادفة على شيء ما تفيلة بأن تقلب حياتك رأسا على عقب • وتجعلك تعيش فى ضيق وفى قلق • وفى جحيم أيضا • وهذا ما حدث بالذات لشفاعات أو للعملة شفاعات التي لا ترضى بغير هذا اللقب بديلا • فهي منذ اللحظة التي وقعت عينها على هذا الشاب الريفى انساذج وهي تشعر بانها فى ضيق • ضيق تبعده عنها أحيانا فيبتعد • ولكنه سرعان ما يعود متسللا اليها من حيث لا تدري • وهو لا يلم بها فى أول الامر مظلما مقبضا بحيث يثيرها ويقلقها ، وانما هو يلم بها كما يلم نسيم الفجر الرقيق العليل بالزهرة الجافة الظامئة فينديها ويرطبها ويروئها ويفتح أفواها للحياة • وأوراقها للدنيا • وعبرها للخلود • ثم فجأة تطلع الشمس القائضة فتحيلها الى الجفاف والتحط والظما الذى لا يستشعر حرقته الا من عرف نعيم الارتواء •

كانت هذه هي حالها ثامنا منذ أن رأت امام ، تذكره وتذكر اللحظة التي رآته فدما ، وكتفه العريضة التي رأتها تحمل بهلول ، ويده الحشنة الغليظة التي شاهدها قابضة على معصمه فم عنف فتطرب ، وتسر ، وتشعر بقبض من الرضا ثم فجأة تذكر أشياء أخرى كثيرة ، هذا الانسان العابر ، هذا الطالب الذئ ، لا يدور أن يكون واحدا من آلاف الطلاب الذين تمتلئ بهم القاهرة كل عام ، منه سيداجته ، الفسوق الهائل

الذى بينها وبينه ، كبرياؤها ، غطرمتها ، سطورتها فى الحارة والزقاق والحي كله ، النقاصى والدانى الذى يرهبها ويخشها تذكر كل هذا ، فتبعده عنها سريعا ، والغريب انه يبتعد ، ويبتعد سريعا كما تريد له ولكن هذا الضيق الذى تشعر به ، هذا الحرمان الذى تعيش فيه ، هذه الجفاف الذى يكاد يقتلها ، هذا الظما الذى يكاد يحيل كل جارحة فيها الى رماد .. هذه النار التى تكاد السنننها تاكلها اكلا .. ماهذا ؟ وما هو ؟ واين كان .. ولماذا لا ياتيها الا اذا ذكرت هذا الشاب ، ورأت صورته ماثلة لعينها ، أو بمعنى اصح لماذا هى لا تستشعر كل هذا الظما الا اذا أبعدت صورته عن خاطرها .. انها من غير شك

تريد منه شيئا ، وهى تعرف جيدا هذا الشيء الذى تريده وتعرف ايضا كيف تحصل عليه ، وتعرف كذلك ان لها من الوسائل ، وعندها من الاسلحة التى زودتها بها الطبيعة ما يجعلها تظفر دائما بما تريد ، وانها فى تاريخ حياتها الطويل لم يستعص عليها أمر ، فما بالها اليوم تتعقد أمورها كل هذا التعقيد وتضيق بحياتها وبنفسها كل هذا الضيق وتستشعر كل هذا التعلق الذى يشبه تماما الخوف من الفشل ، لأنه لم يستقبلها كما تعودت من الرجال ان يستقبلوها ؟ لأنه أغلظ لها فى القول ؟ لأنه كاد يضربها ويطردها من غرفته شر طردة ، لأنه لم يطر جمالها ولم يأخذ هذا الجمال ويستحوذ عليه ، ويجعله يسجد أمامه ، كما سجدت أمامه جميع الرجال الذين رأتهم وأطروه وأخذوا به ؟ أم لسنه الصغره ، وعمره هذا الذى لم يتجاوز الثمانية عشر عاما ، ولكن هل هى من البلاءة بحيث يستهويها رجل بهذه السن ، وتشتهى انسانا فى عمر أولادها لو أنها أنجبت وكان لها أولاد ؟ .. أم ترى هذه السن نفسها هى التى تغريها به وتحببها فيه وتقربها منه ؟ وشعرت بشيء كثير من الضيق يلم بها ، وازداد هذا الضيق عنفا عندما جاء الليل ولم يجرى هذا الشاب معه الى غرفته كما تعود أن يجيرى ، وراحت فى قلب فراشها الدافئ الوثير ، تنقلب ذات اليمين وذات الشمال ، تدفن رأسها فى الوسادة حينما ثم تريحها عليها حينما آخر ، وتلقى بالغطاء من على جسدها مرة حتى يتعري جسدها تماما ، ثم هى مرة أخرى تشد الغطاء عليها وتلف جسدها فيه كأنها تخاف من شيء يترصد بها وكلما سمعت حركة خارج غرفتها أو أحسست بدبيب فى الدهليز شعرت بشيء من الراحة وفتحت عينها ومدت أذنيها مدا طويلا فى الظلام ، وكلما أدركت أنه دبيب بهلول فى السرجة

أو خطوات الاستاذ حسنيو يدخل غرفته أو يخرج منها عاودها الضيق ورفضت القطاء بقدمها في عنف ، ثم عادت ثانية وفي نفس العنف وسحبته عليها ولفت جسدها فيه ثانية ، وفجأة تذكرت شيئا أطربها وهذا من أعصابها ، وجعل الابتسامة الجميلة ترسم على شفطتها الغليظتين ، انه لم يأت حتى الآن لانه تعود أن يصلي العشاء في المسجد ، واذن فهو سيأتي توا وبعد صلاة العشاء مباشرة ، وسوف تنتحل عذرا أى عذر لتراه وتلتقي به ، لا شيء ولكن لترى هذا الشاب الذي مجرد طيفه يقلقها كل هذا القلق ، ويحيرها كل هذه الحيرة ، حتى كانها ترى فيه شيئا لم تراه في غيره من الرجال ، ولكن ما هو هذا الشيء .. انها تريد أن تعرفه ، تريد أن تراه ، وتراه الآن بل وفي هذه اللحظة .. انه لابد وأن يكون شيئا ، هاما .. هائلا .. ولكن الى هذا الحد تمتد بالناس صلاة العشاء في المساجد وأرادت أن تعرف الوقت ، كم هي الساعة الآن ، وهل الناس فرغت منذ زمن بعيد من صلاة العشاء ، أم هي ما زالت في المساجد تصلي .. ونفضت القطاء من على جسدها للمرة العشرين أو المائة بعد العشرين لا تدري ، وغادرت الفراش ومدت يدها الى المصباح الزجاجي الذي كان على البوربه وأشعلته ، وألقت على نفسها نظرة في المرأة ، فرأت أشياء كثيرة رضيت عنها بعض الشيء ، وأشياء كثيرة أخرى رضيت عنها كل الرضا ، ثم ألقت نظرة على ذلك الشحوب الذي ارتسم على وجهها ، وتلك الحمرة التي في عينيها وكادت هذه النظرة تطول وتطيل وقوفها أمام المرأة ، غير أن شيئا آخر لا تدريه على وجه التحقيق ولكنها تدري بأنه أهم عندها من هذا الاصفرار والشحوب ، وأهم عندها أيضا من هذا الاحمرار الذي أحال لون عينيها الى ما يشبه الدم ، جعلها ترتد سريعة من أمام المرأة .. ووقفت لحظات حائرة وسط الغرفة تنظر الى لا شيء ، ثم مدت يدها الى الباب لتفتحه ، وأحسست انها تمدها في حذر ، وحذر شديد أيضا ، وضايقتها هذه الحركة الحذرة منها ، انها لم تتعود الحذر في حياتها ، انها دائما المغامرة الجسور ، انها كثيرا ما ألقت بنفسها في النار ، فلم تحترق . وانما احترق الذين حاولوا انقاذها . فما بالها اليوم خائفة وجلة تكاد يدها ترتعش ، وصدرها يعلو ويهبط وحانت منها نظرة أخرى الى المرأة ، بيد انها لم تكذ تفعل حتى وقفت فجأة جاحظة مسمرة العينين على شيء أمامها لم تراه الا الآن ، ولم تكن لتقدر انها ستراه .. وراحت تنظر

اليه وتدقق النظر فيه وتتفحصه جيدا ، وتتفحص أيضا عينيها
لعل نظراهما خطئه ٠٠ لعلهما نترهمان ، ولينها تراه فعلا
وتراه مخيفا هائلا رغم دقته ورقته ٠٠ انه تماما أشبه بالحيط
الرفيق أندقيق اندى لا يناد يرى ٠٠ ولا نكاد العين نضع
عليه الا اذا كانت قوية الابصار ٠٠ انه يتسلل الى رأسها
خلسة وفي مهارة فائقة ، حتى لا يراه أحد ، انه يختنى بين
خصلات شعرها الاسود الفاحم حتى غدا بينها ٠٠ بين تلك
الخصلات الفاحمة الناعمة ، وفوق هذا الرأس الصغير الجميل
الذى يتوج أجمل وجه عرفته امرأة ، انه يبدو فوق هذا
الرأس تماما أشبه بالكسر الذى لا يكاد يرى فى آنية غالية
ومدت يدها التى تقلصت أصابعها وارتعشت ٠٠ مدتها الى هذا
الثعبان الدنيء الذى اختفى فى طيات شعرها ، وقطعت تلك
الشعرة الدخيلة التى لم تكن أبدا لتقدر انها ستراها بضاء
انها اذن تلعت لعبة خطيرة لم تأمن عاقبتها ، اذن هي تخشى
الفضيل ، ولكن لماذا تخشاه هذه المرة ، وهي التى لم تجربها ابدا
فى حياتها ، بل ولماذا ذكرته الآن ، وما الذى جعل هذا الحاطر
يهر بخيالها ، أو هذه الكلمة حتى تمس شفقتها ؟ ، ورنى فى
أذنها كلمة ٠٠ بل كلمات فراحت فى انتباه شديد تصفى اليها
وكانها تصفى الى حديث يدور بين اثنين يتحدثان على مسمع
منها ٠٠

— وهل ستغفر انت لى خطاى معك اليوم ٠٠ تهجم عليك
٠٠ وغلظتى لك فى القول ؟ ٠٠

— وهل يملك الابن الا أن يغفر لاه كل شيء ؟
وزمت شفقتها ، وزوت أيضا ما بين عينيها ، ووقفت لحظة
فى مكانها خلف الباب جاهدة لا تطرف ٠٠ ولكن ما الذى
يضايقنى فى هذا القول ٠٠ وما الذى أريده منه حتى يضايقنى
منه هذا القول ٠٠ ان الذى أريده منه شيء واحد ٠٠ واحد فقط
هو أن يخرج من بمنى فورا الليلة ٠٠ هذه اللحظة بالذات .
واتخذ وجهها الذى مازال يكتنفه بعض الشحوب ، واتخذت

أيضا عينها اللتان بلون الدم ، صورة اللبوة المعجوزة الشائرة التى
فقدت وعدها ، ومدت ردها بعنف ، فتحت الباب ، وما ان
توسطت الدهليز الذى اكتنفت الظلمة كل جوانبه حتى صرخت
بأعلى صوتها صرخات مدوية ٠٠ فى رعب وخوف شديد ٠٠

حسبو ٠٠ ولما لم يجب عاودت النداء عليه مرة ثانية فلم يرد
حينئذ اقتحمت عليه الباب فى عنف ، ودخلت منه كالبول
الكبير ، وما ان رآته نائما ، ورآته مخمورا بترنج والزجاجة
على صدره حتى دوى صوتها فى الليل كالصاعقة :

— أطرش ، هل فقدت سمعك .. هل أصبت بالصمم ؟ ..
وروع الاستاذ حسبو وهو فى مكانه وأطبق عليه الخوف
وتصور أشبه بانقذ محاولا ما استطاع أن ينهض من مدانه
وينتصب واقفا وينحنى أمامها احتراما ، ولمسا تمكن من هذا
كله بعد جهد ، تمتعت شفتاه المرتعشة ، واضطربت عيناه
التي لا تلد تبصر شيئا من فرط الحمر وقال :

— لم أسمع النداء يا معلمة ..

— سمعت الرعد ، قل لى كم الساعة الآن ..

— كما تريدن لها أن تكون يا معلمة

فاحتدم غيظها وقالت :

— انت الذى يجب أن يدور فى الساقية بدل بهلول

— أدور ، يا معلمة ..

— انت حيوان ..

— ولكنه حيوان أليف ، يا معلمة ؟ ..

فصرخت فى وجهه صرخة مفاجئة ، أرعبته وجعلته
يرتعش فى مكانه ، ويرتعش أيضا وهو يبحث عن الساعة التى
أخطأ مكانها تحت الوسادة ، ولما نفذ صبرها وغازها بنحسه
الطويل عن الساعة ، قالت تنظر اليه فى ضيق لا حد له :

— هل حان موعد صلاة العشاء ؟

فتراخت يدها التى كانت مازالت تبحث عن الساعة
وانتفت اليها مبتسما فى دهشة كبيرة :

— سلامة عقلك يا معلمة ، أى صلاة عشاء ، لقد انتهى الناس

من صلاة الفجر أيضا ..

— ماذا تقول ؟ ..

نظمتها ذاهلة مطبقة الشفاة وقد اكتنفها خجل شديد
تراجعت على أثره وخرجت ، وما أن بلغت غرفتها وأغلقت
الباب خلفها ، حتى ارتمت لاهثة على السرير ودلفت وجدها
الذى أغرقته الدموع فى الوسادة ، انها مجنونة .. مجنونة ..
لا بد أن تكون قواها قد اختلت ، عقلها قد ذهب ، حتى استأهل
منها التفكير فى هذا الشدأ كإ هذا الوقت الطويل .. كل
هذه اللوثة التى جعلتها تسأل الناس عن صلاة العشاء ، بينما
صلاة الفجر قد انتهت أو أوشك الليل على المغيب وأجششت
باكبة تنتحب وراح صدرها على الفراش يعلو ويهبط .. وظلت
كذلك الى حين ..

ولكنى ذهبت الى حسبو لكى يطرد هذا الشاب فورا ، فمالى
نسيت ذلك ورحت أسأله عن الساعة وهل فرغ الناس من

صلاة العشاء .. ومع ذلك لم يحدث شيء ، سوف أطرده أنا اليوم ، سوف لا أجعله يبيت في هذا البيت ليلة أخرى .. ان هذا هو أسلم الاشياء .. ان هذا لابد ان يكون .. لابد ان يحدث .. ويحدث قبل ان ينقضى انهار ..

واطمأنت الى هذه الفكرة الصائبة ، وارتاح اليها قلبها . راحة أضعت على كيانها كله الحثير من الهدوء والاصمتان الذي كانت تعيش فيه قبل يومين ، قبل ان يأتى هذا الشاب الى بيتها ويقطن فيه ، وتنفع عينها عليه ، ولما اطمأنت حقيقة الى هذه الفكرة ، وأحسنت بكل هذه الراحة اليها ، أحسنت أيضا انها في حاجة الى أن تنام فأغمضت عينيها ، واستغرقت في نوم هادئ عميق ، بيد انها لم تمكث طويلا حتى استيقظت ولم تدرك ما الذي أيقظها أهى الشمس التي طلعت سريعا ، أم ضجيج السابلة في الزقاق ، ولكن الذي تدريه انها بقيت في مكانها في الفراش تسترق السمع الى غرفة الشاب من خلف الجدار .. ولكن لماذا لم يستيقظ هو الآخر ميكرا كعادته . لماذا لم يذهب كعادته ليغتسل ويتوضأ ؟ ، ولماذا لم تحدث خطواته بالقبواب هذا الضجيج الذي تعودته ؟ .. لماذا لم يشعل وابور الغاز الذي تعود صوته أن يزعجها في النوم ؟

لماذا لم يقرأ في كتبه ، وينفذ صوته الى غرفتها واضحا وان كانت لم تعرف لفظا واحدا مما يقول ؟ ولا معنى لحرف مما يقرأ ؟ .. هل لم يجيء بعد ؟ ولكن أين ذهب وأين سببت ان لم يكن في غرفته ..

وتسللت من فراشها في حذر دون أن تحدث أدنى حركة وأتت بمقعد وضعته أمام الدواب الذي وضع خلف الباب الذي يفصل بين الغرفتين ووقفت عليه ، ومدت عنقها مدا طويلا كما مدت أيضا نظراتها مدا طويلا ، وراحت تنظر من خلال ثنايا الزجاج المغبر الذي عشت عليه العناكب وأقامت بيوتها فوق شراعة هذا الباب المعطل من عدة سنين واستطاعت أن ترى .. وأن ترى أشياء كثيرة منها جسده الضخم الفتى الذي استلقى نصف عار على الفراش ، كما يستلقى الوحش المفترس على العشب ، ورأت أيضا صدره العاري ، وتلك الظلة الكثيفة من الشعر الاسود الحشن التي عشت على الصدر ، ورأت الذراعين القويتين الغليظتين اللتين التفتا بجانبى الصدر العريض كما رأت أصابعه الحشنة الغليظة التي تشابكت فوق تلك الظلة من الشعر الكثيف ، وكأنها اللجم الفولاذية التي تكبح جماح الجواد القوى من الانطلاق حتى وهو نائم .. رأت هذا كله

ودقت فيه وأدامت النظر اليه طويلا ، ولكن ماله مازال مستغرقا
فى نومه حتى الآن .. وهبطت من على المقعد وأسرعت الى الشال
الأسود الخفيف ووضعتة على كتفيها العسارييتين وهمت
بالخروج سريعا ، بيد انها توقفت لحظات عند الباب ثم عادت

الى البوريه وفتحت أحد أدراجها وأخرجت منه بعض أدوات
التجميل ووقفت حيناً أمام المراة تتزين وتتجمل ، ولما اطمانت
الى كل شيء ، تسلمت من الغرفة نخطر على مهل ، وتسير
على أطراف قدميها ، ان أن بلغت باب غرفته وراحت فى حسد
شديد تنقر عليه نقرا هينا هينا ، وأقرب الى العنف حيناً آخر ،
حتى استيقظ الشاب وما أن فتح الباب ورأها أمامه وجهها لوجه
حتى أخذته المفاجأة ، واضطرب اضطراباً شديداً ، وراح فى
خجل زائد ينظر الى نصف جسده العارى ويحاول أن يختفى به
خلف الباب . ويحاول أيضا أن يحرك شفتيه ليقول لها تادبا :
- تفضل ..

وما ان رأها استجابت ودخلت حتى ازداد اضطرابه ، وراح
يركض كطفل باحثا عن أى شيء يغطى به هذا النصف العارى
من جسده ، ووجد أمامه تلك البطانية فالتف بها ، ونظرت
هى اليه والى خجله الزائد ، وارتباكها الذى لا حد له ، وقالت :
- رأيت الشمس تطل من النافذة ، وسمعت الناس يروحون
ويجيئون فى الزقاق ، وانت لم تستيقظ كالعادة لتذهب الى
المعهد

- أشكرك ..

قالها الشاب فى امتنان ، وشكر حقيقى ، فسرهما منه ذلك
كما سرهما البشر الذى رآته مرتسما على وجهه ، وقالت :
- لعلك لم تتأخر كثيرا عن موعد المدرسة ؟
فقال ممثنا وهو ينظر اليها :

- اليوم جمعة ، وهو يوم العطلة الاسبوعية ..
فبلغت أنفاسها ، وارتبكت بعض الشيء ، بيد انها تماثلت
نفسها وقالت فى شيء من الحجل :
- لم اكن أعرف ذلك ..
وصممت لحظات ثم قالت :

- الايام ، والليالى ، والدنيا ، والشقاء الذى أنا فيه ، كل
ذلك أنسانى نفسى .. أنسانى حتى اسماء الايام وان اليوم
هو يوم الجمعة .

ثم تهدج صوتها وقالت فى أسف :

- أنا متأسفة اذا أزعجتك ، وأقلقتك وأيقظتك من النوم
 - أبدا ، أبدا ، أنا أشكر لك هذا الاهتمام
 فقالت وهي تتجه الى الباب محاولة الخروج :
 - سأتركك لتنام بعض الوقت ، طالما أن اليوم عطلة .
 - لا ، اننى أريد أن أخرج الآن
 فالتفتت اليه ، ورفعت مع التفاتتها بعض خصلات ناعمة
 من الشعر كانت تنسدل على الظهر ، وقالت :
 وأين ستذهب فى يوم عطلتك
 - تعودت كل يوم جمعة ، أن أقرأ الفاتحة لابی فى ضريح
 أم هاشم ، ثم أصلى الجمعة فى مسجد سيدنا الحسين رضى الله
 عنه . .

فزوت مابين حاجبيها وقالت وكانها تذكرت شيئا هاما :
 - فكرتنى ، أنا أيضا متعودة كل صباح جمعة أن أزور
 قبر المرحوم ، أقرأ له الفاتحة وأوزع على روحه الصدقات ،
 فتطاول وجه الشاب بشرا وقال وهو ينظر اليها نظرة تقدير :
 - هذا عمل جليل ، يحفظه لك الله ويثيبك عليه ويجزيك
 عنه الجزاء كله

فرفعت ذراعيها الى الحائط ، فارتفع مع الذراع شيء ماعلى
 الصدر ، ولاح من طوق الثوب ثم قالت وهي تسند رأسها
 على الذراع المتكئة على الحائط ، وتنظر اليه بعين واحدة لأن
 عينها الاخرى كانت مختبئة خلف ذلك الشيء الذى برز على
 الصدر :

- حقيقة ؟ أن الله يجزينا خير الجزاء اذا ما زرنا مقابر
 موتانا . .

- وأمرنا رسوله صلى الله عليه وسلم بأن نزورها : دائما
 اذ قال . .

والتفت اليها سريعا ليذكر لها نص الحديث الشريف بيد أن
 عينه ماكادت ترى ذلك الشيء الذى ارتفع مع الذراع الى أعلى
 وبدأت قمته عارية فوق الصدر ، حتى ارتدت نظراته خجلى
 تضطرب ، وأدار وجهه بعيدا عنها ، وقال متمتما نص الحديث
 فى خجل شديد وكأنه يخاطب شخصا آخر :

- « زوروا القبور . فانها ترقى القلب . وتدمع العين ،
 وتزهى فى الدنيا . وتذكر بالآخرة »

فقالت وقد فطنت الى اضطرابه الشديد . متعمدة أن تنزل
 ذراعها :

- حديثك جديد .
- انه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ..
- فاقتربت منه بعض خطوات وقالت :
- كم أنا فى حاجة الى رجل منك . يخفف عنى آلامى .
- فقال وهو ما زال ينظر الى بعيد :
- آلام الدنيا .. تكتب حسنات لنا فى الآخرة ..
- فاقتربت منه خطوات أخرى وقالت :
- اننى جاهلة .. اننى أريد أن أعرف . قل .. اضرب لى
- مثلا . كيف ان هذه الدموع ، تنقلب فى الآخرة ضحكات .
- مثلا حزنك هذا الدائم على زوجك . وحفظك لذكراه ،
- وحرصك على زيارة قبره كل يوم جمعة . هذه كلها حسنات
- يضاعفها الله لك يوم القيامة .. ويجزيك عنها جزاء طيبا ..
- فصمتت حيناً ثم رفعت عينها الى وجهه وقالت :
- واللواتى يتزوجن بعد وفاة أزواجهن .
- لكل فى الحياة ظروفه . وكثيرا ما تحتاج المرأة للرجل ،
- ولا تستطيع أن تستغنى عنه .
- فتهدج صوتها وهى ترنو اليه وتسأله متلهفة :
- قلت لك اننى جاهلة فوضح لى ما تقول . كيف لا
- تستطيع أن تستغنى عن الرجل ؟
- فاضطرب بعض الشئ وهو يقول :
- لأنها بطبعها ضعيفة . وفى حاجة الى من يعينها .
- وماذا أيضا ؟
- ولأن الرجل يكفل لها دائما الرزق .
- وماذا أيضا ؟
- فازداد خجلا وهو يقول :
- ولأنه يسعى فى الارض من أجلها .
- قل . قل . وماذا أيضا ؟
- ولأنه ...
- وصمت ولم يجب ..
- فقالت لاهثة مضطربة الانفاس تتطلع اليه :
- وماذا أيضا . قل .. قل ..

فهممت شفتاه لحظة .. وهو يتمتم بشيء من القرآن كان يحفظه ثم وجه الحديث إليها :
- قال الامام على كرم الله وجهه (الرجل الصالح للمرأة ظل .. والمرأة الصالحة للرجل ظل .. فحافظوا على ظلالكم ، يحفظ الله لكم الدينيتين »

وفجأة انسابت الدموع من عينيها ، وفجأة ايضا ألقت بنصفها الاعلى على سرير الشاب دافئة وجهها بين ذراعيها وراحت معولة تبكي وتنشج نشيجا موجعا ، وكل جارحة فيها تهتز وتضطرب . فارتاع الشاب وارتيك ارتباكا شديدا وراح حائرا يتلفت حواليه . وكلما ألقي نظره عليها ورأى ما بدا عاريا من جسدها . ورأى ظهرها يعلو ويهبط والدموع التي أغرقت وجهها وذراعيها العاريتين ازداد خوفه واضطرابه .. وكلما حاول أن يسألها من بعيد دون أن يقترب منها عما بها لا تجيب بل تمن في البكاء والعيول ، تضاعفت حيرته وارتيبها . وأخيرا أسرع ناحية الباب محاولا أن ينادى على الاستاذ حسبو . ولكنها صرخت فيه صرخة مدوية وهي تنشج وترتعش :

- دعه .. لا أريد أن أراه .. لا أريد أن أرى أحدا .
فارتد الشاب إليها وكل شيء فيه هو الآخر يرتعش .. واستطاع أن يجاهد نفسه حتى اقترب منها ووضع يده المرتعشة على رأسها ، وهو يقول في نفس الخوف والاضطراب :
- ماذا بك . ماذا بك ؟

فمدت أناملها وامسكت بيده وتمتمت وهي ترفع اليه وجهها الذي أغرقته الدموع :
- اننى أبكى الظل الذي فقدته ..
فتأثر الشاب تأثرا شديدا جدا . وتمتمت شفتاه وهو يمد يديه الى كتفها لينهضها :

- اللهم لا حول ولا قوة الا بالله ..
ثم أنهضها وأجلسها بجواره على الحشية ، وراح في حنان جم يجفف لها دموعها . كالابن الحنون الذى يجفف دموع أمه الثكلى وهو يقول وكأنه يخاطب نفسه :

— انك طيبة القلب حقيقة • ان من تحمل مثل هذا القلب الكبير • وتحس هذا الاحساس النبيل ، لن تتخلى عنها عناية الله ابدا • وحسب المرء أن يكون الله عوناً له •
فقالت وهي ما زالت تبكى وتنظر اليه :
— اننى متعبة جدا • فهل لك أن تصنع معسروفا • اذ تصحبني معك لزيارة المرحوم • اننى أخشى ان ذهبت وحدى .
أن أصاب بسوء •

فقال سريعا وهو ينهض محاولا أن يستعد للخروج :
— وسوف أصحبك كل يوم جمعة الى هناك • وسوف أكون دائما كما قلت لك بمثابة الابن البار •
فاضطربت ثانية بعد أن هدأت بعض الشيء ونهضت سريعا فى ضيق شديد محاولة الخروج • بيد أنها عند الباب وقفت لحظات وقالت دون أن تنظر اليه :
— الى أن تردى ثيابك • سأنتظرك عند السلالم بجسدي السبيل ••

فقال الشاب فى اهتمام زائد :
— دقيقة واحدة والحق بك ••

الفصل الخامس عشر

أسرع الشاب بعد أن خرجت فاغتسل • وحرص على أن يتوضأ • فقد قرأ في كتاب « بهاء الزمزم » في الصلاة وفرائض الوضوء • أن الامام على كرم الله وجهه • كان لا يذهب الى زيارة مقابر الموتى ، الا اذا تطهر وتوضأ واركدى ثيابا نظيفة • • وكذلك فعل هو : ثم لحق بها عند سلالم السبيل كما وعدته • وهناك وجدها تنتظره داخل عربة حنطور ، فاندھش وتردد قبل أن يركب ، وأفهمها بأنه كان يفضل السير على الاقدام ، ففيه فائدة للصحة ، وتوفير للمال • فضحكت في ابتهاج كبير وهي تمد اليه يدها ليركب بجانبها بعد أن قالت له انها متعبة كما يعلم ولا تستطيع أن تذهب من باب الخلق الى المحدثى سيرا على الاقدام • فافتنح وركب بجوارها ولكن دون أن يمد يده الى يدها الممتدة اليه • ولما جلس بجوارها داخل العربة ، لاحظت انه يعتمد الابتعاد عنها بشكل ظاهر • فضايقةا هذا وضايقةا الى حد الغيظ ، ولكنها تظاهرت بالسرور وقالت ضاحكة تنظر اليه وهو منزو في ركن العربة يتمتم بكلمات من القرآن •

— لماذا تجلس هكذا • استرح في جلستك •

— مستريح الحمد لله • •

فنظرت اليه مرة أخرى ، والى المسافة التى تفصل بين ثوبيهما وقالت وهي ماتزال تضحك :

— تاكد أن ثيابي نظيفة • وليس فيها ما يلوث ثوبك اذا جلست مستريحا •

فخجل الشاب وقال :

— العفو • • لم أقصد ذلك • •

فقالت وهي تنظر اليه نفس النظرة :

— ولكنك قصدت متعمدا ألا تلمس يدي التى امتدت اليك وأنت تركب العربة •

فتضاعف خجله وقال وهو ينظر اليها مبتسما :

- أيضا لم أقصد ذلك ، وانما تحاشيت أن ينتقض وضوئى
 اذا صافحتك ووضعت يدى فى يدك •
 فقالت وقد ارتسمت بعض علامت الدهشة على وجهها :
 - الانتقض وضوءك اذا صافحتك ووضعت يدك فى يدى ••
 فصمت قليلا وقال :
 - الدين يقول ذلك ••
 - وهل اذا صافحك رجل أيضا ؟
 - الرجل لا ••
 - ولماذا اذن المرأة ؟

فارتبك وأراد أن يقول شيئا ولكنه لم ينطق • واحست
 بسرور داخلى لهذا المرح الذى أوقعته فيه • فصمتت هى
 أيضا لحظات • ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها فى دهشة :
 - شيء غريب ••
 - ما هو ؟

- أن يصافحك رجل فلا ينتقض وضوءك •• وتصافحك
 امرأة فتنتقض هذا الوضوء ••
 فقال الشاب فى سذاجة كبيرة :
 - هذا شيء طبيعى ••
 - وما الطبيعى فيه ؟
 - ان هذا رجل • وهذه امرأة •
 فتهدج صوتها وهى تقول :
 - وما الفرق بين الاثنين ؟
 - كبير جدا ••

فقالت بنفس الصوت المتهدج الخافت الذى يكاد يشبه
 الهمس :

- ما هو •• حدثنى عنه • قلت لك اننى جاهلة •• وأريد
 أن أعلم •• قل •• تكلم ••
 ثم أمعنت اليه النظر وهى ما زالت تتمتم :
 - تحدث •• قل •• ما هو الفرق ••
 فقال الشاب :

- لا أستطيع أن أوضحه لك •• ولكن الذى أعرفه •• أن

أصحاب المذاهب لم يتفقوا على رأى • فمثلا ابن حنبل •
يحتم وجوب الفسل اذا لامس الرجل المرأة • ومالك يكتفى
بإعادة الوضوء • أما الشافعى فيجيزه اضطرارا ما دامت
النيات خالصة والنظرات طاهرة • • والملامسة بريئة • •

— رجل طيب الشافعى هذا • •

— الفاتحة لروحه • • الفاتحة • •

ومد الشاب يديه الى أمام وراح يقرأ الفاتحة بصوت عال ،
واضطرت هى الى أن تجاربه فقرأتها معه ثم قالت وهى تنظر
اليه وهو يمسح على وجهه بعد أن قرأ الفاتحة :

— وانت مامذهبك ؟

— حنبل • •

— يا سائر • • ولماذا لم تكن شافعى ؟

— هكذا كان أبى رحمة الله عليه • •

وكانت العرب قد بلغت بهما نهاية الطريق فهبطا منها •
وراحت هى تسير وسط القبور • والشباب يسير خلفها
مغمض العينين ، يقرأ آيات من القرآن فى تأثر شديد • •
وزاده تأثرا ذكره لأبيه ، حتى اخضلت عيناه وراح من حين الى
آخر يجفف دموعه تسقط هنا وأخرى تسقط هناك • الى أن
بلغت به قبر — المرحوم — فدارت حوله مرات وهى تقرأ
الفاتحة وتبكي • فى حين جلس الشاب بجانب القبر متربعا
وأخرج من جيبه مسبحة طويلة سوداء كان قد ورثها عن والده
• • وراح يقرأ سورة الحجرات بصوت مرتفع ويجود ما يقرأ
وهو يهتز ذات اليمين وذات الشمال • كما كان يهتز وهو
يجود القرآن على يدى الشيخ نوفل فى القرية وهو صبنى • •

وراحت هى تنظر اليه مبتهجة مسرورة مقدره له هذا الخلق
الطيب وهذا التدين الكبير • وهذه الصحبة التى أنستها الكثير
من متاعها • حقيقة هى لم تزر قبر المرحوم منذ سنوات • بيد
أنها كانت اذا زارته مرة أحست بانقباض شديد وضيق يكاد
يجثم على قلبها • أما اليوم فهى أشبه بما تكون فى رحلة
جميلة ، وزادها سرورا أنها التقت عند القبر ببعض النسوة
التي كانت على صداقة قديمة بهن • ورحن يتحدثن اليها

وتتحدث اليهن ويلمنها لوما شديدا لأنها بقيت أرمل حتى الآن ولم تتزوج وكيف انها ستتقضى على جمالها بهذا الحزن الذى تعيش فيه . وتقضى على شبابها بهذه الحياة الجافة التى تحياها . وان المرأة ان لم يكن لها خير فى شبابها ونفسها لم يكن لها خير فى أحسد . وان الذى مات ، مات وانتهى . وأطربها هذا القول وراحت تصغي اليه فى سرور ، وكلما أوشك هذا الحديث أن ينتهى ، مدته بكلمة عابرة ، أو نظرة ساهمة ، أو حسرة على فقد المرحوم الذى لم تعوضه . . وطال الحديث بينهما . بيد أن واحدة منهما لم تكن مشتركة فيه . . ضايقتها هذا القول الملل وهذه النصائح التافهة ، وكانت لا تعرف شيئا كثيرا عن شفاعات فقالت وهى تنظر الى أمام الذى كان قد فرغ من قراءته ومن قراءة الفاتحة أيضا ، واتجه الى شفاعات لينصرف بها :

— لا تصغى الى هذا القول . وكفك سعادة أن يصبح ابنك هكذا رجلا . ولو كان لى ابن مثله لكفانى وأسعدنى أن أترمل عليه الى الابد .

واكفهر وجهها فجأة . وزاده عبوسا ، أن بقية النسوة نسين ما كن يتحدثن فيه . وأيدن هذا القول . ومددن أيديهن الى امام يصافحنه ويشدن برجولته ويوصينه خيرا بأمه هذه التى

جعلت منه رجلا . وارتبك امام ولم يجب بل أمن على هذا القول . وارتبكت هى أيضا . وكأنها خشيت أن ينفجر غضبها . فمدت يدها وصافحتهم سريعا وانصرفت تسير بالشباب صامتة بين القبور الى أن رفعت اليه رأسها المحترق ، ونظرت اليه وقالت ضاحكة فى مرارة كبيرة :

— أترى انى أشبهك الى حد كبير ، حتى انهم يظنون دائما هذا الظن . .

— انه ظن جميل ويسرنى أن يظنوه دائما . .

— لست أرى فرقا كبيرا بين الحقيقة وبين ما يظنون . .

— أبدا . . أبدا . .

ففطن الشباب الى شيء وقال سريعا فى مجاملة حلوة .

— فى شيء واحد فقط . .

فأمسكت أنفاسها وهي تقول :

- ما هو ؟

فقال مبتسما دون أن ينظر إليها :

- في السن ..

فقالت مبتهجة تضحك من قلبها :

- أينما أكبر سنا يا ترى ..

- أمي من غير شك ..

- هذه مجاملة منك ..

فقال الشاب جادا :

- أمي عجوز .. تزيد على الأربعين ..

فارتعش قلبها حتى لكانه أصيب بحجر .. وارتعش معه
كيانها كله . ولكنها قالت متماسكة وهي تنظر الى مكان
خطواتها على الأرض :

- والتي في سن الأربعين عجوز ..

- تخطت سن الشباب على الأقل ..

فصمتت ولم تجب . وظلت تسير بجانبه ساهمة واجمة
تنظر الى مكان خطواتها على الأرض . وأدرك هو أنها محزونة
ولكنه لم يدرك سبب أحزانها . فنظر إليها وقال :

- فيم تفكرين ..

- أحس بانقباض شديد ..

فقال في سذاجة :

- هكذا تكون دائما بعد زيارة مقابر موتانا . ولكن بذكر
الله تطمئن القلوب . فاذكرى الله سبحانه وتعالى واذكرى
ايضا أن هذا مصير الخلق جميعا . وأن هذه هي سنة الله في
خلقه ..

فقالت وهي تحاول جاهدة أن تبسم :

- أأثقل عليك لو اننى طلبت منك طلبا يسيرا ؟

- بالمعكس يسرنى .. وثقى اننى لن أرفض لك طلبا ..

- أى طلب ؟

- أى طلب ..

- احلف ..

قالها الشاب فى ثقة وإيمان لا حسد لهما • وسرها ذلك
بعض الشيء ولكنه لم يسرها السرور كله • ولذلك صمتت ولم
- وجلال الله ••

تجب فسألها باهتمام :

- ماذا تطلبين ؟

- اننى أشعر بضيق شديد • والذهاب الى البيت الآن
سينزىنى ضيقا ولذلك أنا أريد أن أتنزه بعض الشيء ••
وليس من عادتى أن أتنزه بمفردى لأن نظرات الناس وأحاديثهم
السمجة تزيدنى ضيقا •• لذلك أريدك أن تصحبنى ••
- الى أين ؟

- كما تريد أنت ••

فقال ضاحكا فى ابتهاج :

- اننى من الأرياف ولا أعرف عن القاهرة شيئا ••
ففكرت بعض الشيء •• أو تظاهرت بأنها تفكر بعض
الشيء ثم بعد حين رنت اليه بعينها الواسعتين •• وقالت
متمتمة وكأنها مازالت تفكر :

- نذهب • نذهب ياسيدى •• نذهب ••

- أولا نتناول الغذاء ، ثم الساعة الثالثة نذهب الى السينما

ثم قالت وكأنها تذكرت شيئا جميلا :

فتردد الشاب ثم قال فى شيء من الحرج :

- الغذاء أمر سهل •• أما السينما ؟

وأطبق شفتيه ولم يجب فقالت :

- أتكره السينما ؟

- لم أذهب اليها فى حياتى ••

- لأنك تكرهها ؟

- لا •• ولكن لانى سمعت فضيلة الشيخ الفرجانى نى

المعهد يقول انها من المحرمات ••

فقالت فى دهشة :

- البسينما حرام ؟

- مكروهة على أية حال ••

- لماذا ؟

- يقولون بأنها تعرض أحيانا بعض الصور الخليعة وترى
من أعضاء الجسد ما حرم الله أن يرى • وهذا حرام • •
- ليست أبدا كما تظن • • وسنذهب الى سينما مؤدبة
جدا • • وسوف ترى • •

- اذا كان الامر كذلك أوافق • •

فتطلقت أسايرها • وشعرت بنشوة لا حد لها • • اد
استجاب هكذا سريعا الى رغبة من رغباتها • وانطلقت معه
خفيفة رشيقة مرحة • • كالعصفور الذي انطلق من سجنه
يحلق فرحا في الفضاء الكبير • وراحت تسير معه فى شوارع
القاهرة وأحيائها الشعبية كطفلة حديثة السن يسير لعابها
لكل شيء • • حينما يشربان العرق سوس ، وحينما ياكلان
الترمس والحلبة وحينما الحلوى ، وحينما تتحدث اليه حديثا
جميلا ، يستغل عليه باطنه فيبتهج لظاهرة ابتهاجا شديدا •
وحينما يتحدث هو اليها عن دهشته من أهل مصر ، ونساء أهل
مصر وكيف يسرن فى الطرقات هكذا سافرات متبرجات ،
يبدن من زينتهن ما لا يجب أن يبدى ، ويظهرن من مفاتهن
ما حرم الله ان يظهر • فتروح تحدثه ضاحكة عن هذا
الترمز الذى يعيش فيه وعن الحرية التى تتمتع بها فتاة
الحضر • والسجن الذى تعيش فيه فتاة القرية • •

وظلا كذلك الى أن انتصف النهار وحل موعد الغداء فذهبت
به الى « حاتى العائلات » وهو مطعم معروف فى ميدان باب
الخلق • تعودت المعلمة شفاعات أن تتردد عليه من حين الى
آخر • وهناك استقبلهما حسان السفرجى استقبالا حسنا ،
وأعد لهما مائدة منعزلة كما أرادت • كما استقبلهما عصص
الشواء استقبالا حافلا • وترك فحمة وناره وأسياخه وراح
يرحب بها ويسألها عما تريد وعما تشتهى أن تأكل اليوم • •

فطلبت منه فى فرحة زائدة أن يعد لها الكثير من أنواع الشواء
• • أما الشاب فكان فى شغل عن هذا كله برائحة الشواء
الشهية اللذيذة التى تداعب منخاريه وتنفذ كرائحة العطر
الجميل الى خياشيمه • وزاده سرورا عندما حفلت المائدة أمامه
بأنواع الطعام المتعددة ذات الرائحة الزكية ، فسراح ياكل

بفرحة غامرة ويلتهم الطعام التهاما غير ملتفت الى شيء . .
لا المعلمة . . ولا فرحة عينيها التي تراه وهو يأكل بهذه
الشهية . . ولا الى ملايتها الحريرية التي تركتها تنسدل من على
الرأس والكتفين تاركة الرأس الجميل والشعر الكستنائي
اللامع تتهدل خصلاته وتنساب على ظهرها كاليلور . . وفوق
كتفين بلون العاج حتى الصدر العريض العاري الذي يتموج
نوره ويتيه استعلاء بقيمته وجلالا بتوأميه وان لم يظن اليه ولم
يره . . ولم يفضبها ذلك أو ينغص من سعادتها لان فرحتها
بسعادته بالطعام واقباله عليه وأساريره التي فاضت بشرا
بطلعة المائدة كل ذلك أحب عندها من كل ماعده . . انه عندها
كل شيء . . انه مطلع النور . . انه أول الغيث . . أول لبنة في
صرح الحب . . بتحقيق الآمال . . استجابة الرجاء . . انه
الوسيلة . . وهل الحب الا الوسيلة ، التي نعبر عليها الطريق
الى الغاية . . انه لم يكن أبدا للغاية نفسها . . اننا اذا
بلغنا النهر نكون قد ارتويناه . . نكون قد ثلنا كل شيء . . لذلك
فان الوفاء والعطف والاخلاص والحنان والدموع والتضحية
والشقاء وانفاق المال ليس كل ذلك الا من أجل الوصول الى
الغاية فقط . . ان هذه كلها مطايا نعبر عليها الطريق للنهر
. . أما اذا بلغنا النهر فلن نكون في حاجة الى هذه المطايا . .
لن نكون في حاجة الى شيء منها أبدا . . لأن أمواجه ستأخذنا
قسرا . . سنتسبيناه حتى متاعب ومشاق السفر . . اذن فكل
شيء هو الطريق . . والطريق فقط . .

ونظرت اليه وهو يلتهم قطعة من اللحم يحشو بها فمه ،
فمدت يدها واقتطعت له قطعة أخرى . . وناولتها اليه ولاحظ
هو انها لم تأكل كما يأكل هو . . ولم تقبل على الطعام بنفس
الشهية التي يقبل هو بها عليها . . فقال لها وهو يتناول قطعة
اللحم من يدها :

— لماذا لا تأكلين أنت أيضا ؟

— يكفيني أن أراك تأكل . .

فقال على الفور في سذاجة لا حد لها :

— هذه عاطفة نبيلة . . لا يستشعرها الا قلب أم فعلا . .

فلم تسمح لفرحتها الغامرة أن يعكرها هذا المعكر الكريه .
ولذلك قالت تلى الفور ضاحكة فى سرور وهى تنتتى قطعة
أخرى من اللحم وتناولها إليه :

— كل هذه ..

— أكلت كثيرا !

— هذه فقط ..

— شبعت ..

فالت غانجة وهى تبعد بطرف أصبعها خصلة خبيثة من
الشعر كانت قد تسلفت الى مكان ما على الصدر :
— وهل ترد لى يدا ؟

فتناولها من يدها سريعا وهو يقول ضاحكا فى بشر :

— ولن أرد لك طلبا ما حييت ..

فقالت وهى تمد قدمها تحت المائدة وتضغط فى حنان على
قدمه :

— ولا حتى هذا الطلب ؟

فارتعدت قدمه تحت المائدة حتى لكان لدغتها عقرب . ومد
عينه سريعا تحت المائدة . فطالعتها يدها تحبل نقودا . فقال
وهو ما زال يضطرب :

— ما هذه ؟

— ادفع الحساب ..

فتردد وأراد أن يقول شيئا ولكنها سبقته قائلة :

— ألم تقل بأننا أهل ؟

ثم قالت وهى تضغط على يده :

— وأنا التى أضفتك ولكن هذه أيضا أشياء بيننا فقط ..

أما فى نظر الناس فأنت الرجل ..

ثم عقت ضاحكة وهى تصفق لتستدعى الخادم :

— وسوف تكون دائما الرجل ..

وكان الخادم قد أقبل فقدم هو له الحساب . ولما انصرف
أراد أن يعطيها ما تبقى معه من نقود . ببسدا أنها قالت وهى
تنهض وتتناول الملاءة الحريرية السوداء .. وتلفها فى أحكام
على ذلك النور الذى يشع من الظلر والكتفين :

- أنسييت أننا اتفقنا ..

- على ماذا ؟

- على أنك رجلى .. وانك ستأخذنى اليوم الى السينما ..
فقال فى شىء من الحجل والارتباك :

- سوف أدفع أنا ثمن السينما ..

فقالت ضاحكة وهى تضع يدها تحت أبطه وتنصرف :

- عيبك انك لا تفهم سريعا ..

وكانها أدركت ما يؤلم فى هذا التعبير ، فأسرعت قائلة
وهى ما زالت تضحك :

- أقصد انك سريع النسيان ..

- نسييت ماذا ؟

- انك ابنى فيما بيننا . ولكنك رجلى أمام الناس ..

فتال وهو يجاريها فى الضحك :

- لك الحق .. وسوف لا أنسى هذا بعد الآن ..

وكانا قد انصرفا من المطعم . وكما كانا يقطعان الطرقات
ويتفرجان على الناس والمعروضات حتى يحين موعد الغداء ،
كذلك فعلا حتى يحين موعد السينما . بيد أننا كانا هنه
المرءة أقل تكلفا . وأقل تحرجا أيضا . فمثلا لم يجد الشاب حرجا
فى أن يضع يده فى يدها فى الطريق . ولم يجد أيضا تحرجا
كلما رأى شيئا جميلا أعجبه وأراد أن يلفت نظرها اليه أمسك
بها من ذراعها .. وسرها هذا سرورا لاحد له ، حتى أن الوقت
مر سريعا ، على غير ما كانت تنتظر . ولما جاء موعد السينما
ذهبا اليها . وراحت ترفيه الاعلانات، وراح هو فى طفولة يتفرج
عليها ويقرأ أسماء الممثلين والممثلات ، وهى تمدح له فيهم .
جميعا دون أن تعرف شيئا عنهم . ولكن لتعجبه فى الدخول
.. ولما استقر بهما المكان داخل السينما وأطفئت الانوار
سرتها منه أشياء كثيرة جدا كان يجب ألا تسرها ، ولكنها
تفاضت عن الكثير من سذاجته البالغة التى كانت تضايقها .
فقد جلس الشاب بجوارها قلقا ينظر ذات اليمين وذات
الשמال ، وعندما بدأت اشارة الفيلم ظهر عليه الخوفه
والاضطراب وجمحت عيناه وهو يحملق جيدا فى الصور حتى

انه حدث ما جعلها تنفجر ضاحكة ممسكة بكتفه ضاغطة عليه حتى لكانها تريد أن تثبته في مقعده ، فقد حدث أن أقبل على الشاشنة وابور في سرعة هائلة وقد تعالى دويه وصفيره انزعجان فخاف الشاب واضطرب وأمسك بيديه المرتعشتين في مقعده . . كما لو كان الوابور سيسير عليه . ولا تدري هي لماذا سرتها سرورا بالفا هذه السذاجة التي لا حد لها . ولهذا راحت تتحدث اليه مرة فلا يجيب وتضع يدها على كتفه فلا يتحرك ، وبعد حين من العرض ، وكانت الرواية من روايات رعاة البقر التي فيها الكثير من البطولة والفروسية . مما أعجب الشاب كثيرا وجعله في مقعده يميل ويتحرك ويحس بأحاسيس البطل . حتى انه أحيانا كان ينسى نفسه ويندفع في حماس مع البطل الذي يروح يكيـل الضربات لعدوه ، ويصرخ بأعلى صوته في الصالة ، مشيرا بقبضة يده للبطل بقوله - اديله - اديله - وعندما يرى كميناً أعد للبطل الذي يقبل عليه دون أن يدري حتى يكاد يسقط فيه ، يصرخ الشاب أيضا بأعلى صوته في الصالة محنرا - ارجع - ارجع - حاسب - وبالرغم مما في هذا من احراج كبير للمعلمة ، التي راحت نظرات الجمهور وسخرياته توجه اليها والى الجالس بجوارها . . الا أنها كانت هي الاخرى سعيدة سعادة لم تستشعرها منذ سنوات . وذلك لسبب واحد فقط وهو احساسها بأنها استطاعت أن تصنع شيئا لهذا الشاب يسعده الى هذا الحد ، ويخرجه عن وقاره الجامد الذي يعيش فيه . ولما انتهى العرض وخرج الجمهور ، وكان المساء قد أقبل ، ظل الشاب غارقا في فرحته ، سابحا في سعادته هذه التي تفيض عليه ناسيا نفسه ووقاره . كما كان تماما في السينما يعيش مع البطل . لدرجة أنها لما استدعت أحد الحوذية في الطريق ، ووقفت أمامهما العربة ، وركبت هي ومدت يدها اليه لم يرفض يدها كما فعل ذات مرة ، وانما تناول يدها في فرحة غامرة وصعد اليها خفيفا رشيقا غير هياب ولا وجل . ولما جلس لم يجلس بعيدا عنها وانما جلس ملتصقا بها يضحك ويقهقه كما كان يضحك في السينما . وانتهزت وهي ملتصقة

به هذه اللحظات ، والطريق المقفرة التى تسير فيها العربى ،
وراحت تذكره بالاشياء التى أطربته فى الفيلم والتى تزيد
من سروره . فراح الشاب يضحك مبتهجا كما لو كان ما زال
جالسا فى السينما يشاهد الاحداث أمامه على الشاشة . بيد
انه حدث فجأة ما عكر عليه صفو هذا المرح وهذا الابتهاج . .
فقد شردت المعلمة فجأة وصمتت منكسة الرأس . . أشبه
بمن يعالج ألما حادا . ومدت يدها الى جبينها الذى تتلأأ عليه
حبات الترتر وخرج النجف المدلاة من المنديل أبو أوية الذى
عصبت به رأسها الجميل ، وراحت تعصر جبينها عصرا فى ألم
. . وسأله الشاب عما بها ، فطمأنته فى أول الامر وأفهمته
بصوتها الخافت المحموم بأنه الصداق الحاد . فتألم الشاب ألما
شديدا محاولا أن يصنع لها شيئا ، وسرها الى حد كبير منه
هذا الاهتمام . . محاولة أن تطمئنه ما استطاعت . . بيد
انها لما عجزت عن احتمال الألم وعن حمل رأسها أيضا أخذت
تزفر زفرات حادة متقطعة وهى تميل برأسها على رأس الشاب
الذى راح يمسح عليه بيده وهو يقرأ فى سورة الفلق وكلما
أمعن الشاب فى القراءة ازداد وجعها وارتعش جسدها كله
وهى ملتصقة به ، طالبة منه فى توسل أن يحضر لها سريعا
شيئا يخفف هذه الآلام . وحاول الفتى وهو فى غاية الحزن
أن يرفع رأسها من على كتفه لكى ينصرف سريعا ليشتري لها
« برشامة » بيد أنها توسلت اليه الا يتركها وأشارت له أن
يوقف العربى ويرسل الحوذى ليشتري هو البرشامة وانصرف
الحوذى سريعا يبحث عن « البرشامة » . . ونظر الشاب اليها
مشفقا جدا وراح بيده يمسح على رأسها النائم على كتفه مرة
أخرى . وهالته كثرة الدموع التى رآها تنساب من عينيها ،
فأخرج منديله وراح يجفف لها هذه الدموع فأمسكت هى
بأصابعه ونظرت اليه من خلال تلك الشبكة المرتسمة على
وجهها . وقالت بصوت أشبه بلفحات النار :

— اننى ارتعش . . اننى ارتعش . . ان رأسى يكاد يتفتت .
ثم انفجرت باكية مرة أخرى وهى تقول متوسلة :

- ان رأسي يكاد يحترق • خذني الى جوارك • •
 فالتصق بها الشاب أكثر من ذي قبل وهو أكثر اضطرابا •
 - خذ رأسي الى صدرك •
 قالت ذلك ثم ارتفعت برأسها وكتفيتها على صدر الشاب الذي
 من شدة حزنه راح يفسح لها المكان الذي تريد • •
 ونظر الشاب الى الجسد الذي يرتعش على صدره والوجه
 الذي تغمره الدموع وهو يتعتم في حزن شديد :
 - اللهم لاحول ولا قوة الا بالله • تشجعي •

ونظرت هي اليه من خلال شبكة الدموع مرة أخرى ،
 ونظرت اليه جيدا هذه المرة ، ومدت ذراعيها المضطربتين ،
 وتحنست بيديها كتفيه وحنقه الضخم • وراحت تبكي فازداد
 اضطراب الفتى ومال بحنقه الذي بين ذراعيها على رأسها 'لني
 يحترق ، واقتربت برأسها من رأسه • ووجهها من وجهه • •
 وانفاسها من انفاسه • وعيناها من عينيه • وراح ينظر في
 اشفاق زائد وأسف مريع ، الى هذه العيون الذي كانت تضحك
 منذ لحظات فإذا بالدموع تغمرها الآن • وتنظر هي من خلال
 تلك الشبكة المائية المرتسمة على عينيها الى عينيه القاسيتين
 اللتين تشبهان عيني صقر • •

وأحست بشيء من الخوف يكتنفها ويخنق أحاسيسها جميعا
 ويضغط عليها في عنف • وكما يخشى فاقد الوعي المقدم على
 الانتحار أن تخونه قواه فيسرع بلا أدنى تفكير بالضغط على
 الزناد • كذلك أغمضت هي عينيها سريعا • وجذبت بذراعيها
 الملتفين حول عنقه ، وجهه الى وجهها سريعا أيضا • ومن ثم
 تمتمت في حشجة الميت تماما وهي تطبق بشفتيها على شفتيه :
 - اممام • • انني أحبك • قبلني •

ولم تظن بعد ذلك الى ما حدث على وجه التحديد • • وانما
 الذي تذكره تماما انها رأت جسدها كله ملقى في أرض العربة
 كما رأت أيضا فيما رأت الشاب يفر هاربا يتخبط في الظلام
 • • كما يتخبط تماما الانسان الذي يطارده في الليل ثعبان
 هائل مخيف • •

الفصل السادس عشر

« لكل شيء إذا ما تم نقصان »

بهذا كان يتحدث الشاب الى نفسه وهو يسير فى الليل خائفا مضطربا يتلفت ذات اليمين وذات الشمال كما لو كان ذلك الثعبان الهائل ما زال يطارده

انه كان يقدر كل شيء ، ويفكر فى كل شيء وينتظر أيضا من الدنيا والناس كل شيء ، الا أن تكون هذه المرأة التى تحمل هذا الخلق الطيب وهذا القلب الكبير ، وهذا الكرم الذى اعدته عليه ، تكون على هذا السوء ، أو هى تريد منه هذا السوء .. ولكن كيف سولت لها نفسها هذا الائم الكبير ، الذى دونه الموت من غير شك .. وكيف هو لم يفتن الى غرضها ؟ ولكن هل هى بهذا الحبت بحيث جعلته يتخذها كام له .. بحيث جعلته يظنها ملاكا بينما هى فى الحقيقة شيطان رجيم .. بينما هى تريد منه .. تريد منه ماذا ، وانفجر باكيا ، وأخرج منديله المحلوى الكبير وجفف به دموعه التى سالت واختلطت بحببات العرق المتصبيب من جبينه .. وواصل سيره ، كما واصل

أيضا حديثه الى نفسه .. ولكن ماذا يفعل الآن وكيف هو يعود الى هذا البيت الدنس ثانية .. الى هذا الشيطان الرجيم مرة أخرى .. الى هذه المرأة الداعر ؟ وهل أساء هو الى أحد حتى يسيىء اليه القدر ، ويوقعه فى هذا السوء .. وأخرج منديله مرة أخرى وجفف بعض الدموع .. وواصل حديثه الى نفسه .. انه حقيقة استطاع أن يرد عنه هذا الشر بمجرد أن فطن اليه ، فهل هو سيسطيع ذلك مرة أخرى .. ألم تكن هذه المرأة التى استطاعت أن تجعله يحسن بها الظن ، وكانت لها القدرة على أن تجعله يتخذها أما فعلا .. فى استطاعتها أيضا ولها من القدرة على أن تجعله .. تجعله ماذا .. وجحظت عيناه جحوظا غريبا وهو ينظر الى السماء وكأنه يستجديها .. ان أسلم الأشياء الا يعود ثانية الى هذا البيت .. ولكن ماذا يصنع وأين يبيت .. أينذهب الى محمد بن ويطلب منه أن يبحث له عن مسكن آخر .. وماذا سيقول له اذا سألته عن السبب ؟ أقول .. واخضلت عيناه وتمتمت شفثاه بالفاظ من القرآن كان يحفظها .. وظل يقرأ وهو يسير على غير وعى ، ويقطع الطرقات خائفا يضطرب ، الى أن وجد نفسه ودون قصد ، يقف مترددا أمام بيت من البيوت ، ثم وجد نفسه ودون قصد

أيضا يصعد السلم ، ويقف أمام باب إحدى الشقق ، ويدق الجرس ، وما أن فتح الباب حتى وجد نفسه وجها لوجه أمام سلوى ، ونظرت الفتاة في دهشة الى وجهه الاصفر الشاحب ، وعينييه الزائفتين .. وقالت مضطربة قبل أن تدعوه للدخول :
- امام ، ما بك ؟

فتذكر كل شيء وتمالك نفسه وقال مبتسما :
- لا شيء ، لا شيء ، فقط أردت أن أتريضا فجئت ماشيا ، والمسافة بعيدة اتعبتني ..

فانفجرت أساريرها في ابتهاج وهي تقول وتدعوه للدخول :
- أزعجتني يا شيخ .. حسبتك مريضا .. ادخل .
ودخل الشاب ، ولما جلس هدأت أنفاسه ، وعاد الى طبيعته وأقبلت الست صبرية مرحبة ، كل ذلك دون أن يفتن الى دهشتيهما من حضوره المفاجيء ولما أدرك في نهاية الامر ، انتحل لمجيئه هذا عنرا ، وقال :

- وجدت عندي من الوقت والفراغ ما يمكنني من أن أبدأ الدرس مع سلوى الليلة ، بدل من أن نبدأ في الأسبوع القادم ..

ففرحت الست صبرية ، وشكرته على هذا الاهتمام ، وتركتها لبدء الدرس ، وانصرفت لتصنع لهما الشاي ، وجلست معه سلوى ، تنظر الى وجهه ، والى الفرق الهائل الذي كان عليه منذ لحظات عندما فتحت له الباب ، وكيف انه تغير سريعا من الاصفرار والشحوب والاضطراب ، الى هذا البشر وهذا الابتسام والهدوء والاطمئنان ، فقالت متخافتة وهي تتعمد البحث عن الكراسة التي سيبدأ فيها الدرس الاول :
- أظنك مازلت تذكر أيام زمان

- وهل تنسى أيام العمر
- وتذكر انك تعودت دائما أن تقول لي الصدق ، ولا تكذب

على
- وسأتعود دائما أن أقول لك الصدق ، ولا أكلب عليك
- قل اذن ماذا كان يزعجك عندما فتحت لك الباب !!
فعاد الاصفرار يرتسم رويدا على وجهه وتأخذ نظراته مكان الحروف ، وقال سريعا كمن يريد أن يبعد سوءا عنه :
- لاشيء ، لاشيء ، قلت لك لا شيء ..

- اذن انت تكذب
فارتبك الشاب وقال :
- كلا ، وإنما الامر أيسر مما تظنين ..
- ١٠٠ -

- ما هو ؟

- الحقيقة اننى غير مستريح الى السكن الذى أقطن فيه
فعمدت الدهشه لسانها وهي تساله :

- قلت لى أمس انك مستريح الى حد كبير

- اتضح أن البيوت كالدس .. لا نعرفها على حقيقتها
الا اذا خبرناها ..

- وما اننى يضايك فى البيت ؟

فاعوده الارتباك وزم على شفثيه فى حزن وتمتم وهو ينظر
الى الارض ويضغط على أنامله حتى ليكاد يعصرها :

- السيرجة ، ورائحة الزيت ، والعفن الذى يتصاعد من
الكسب .. و .. وأشياء أخرى ، قذرة .. قذرة جدا

ولاحظت عليه الحزن الشديد الذى هو فيه ، فتركت مقعدها
وانتقلت بجوارده وقالت له وهي تربت على ذراعه مطمئنة

- من الغد سوف أبحث لك عن سكن ملائم عندنا هنا فى
الوايلية

فقال وهو مازال يفرك أصابعه وينظر الى الارض :

- وهل سيكون بالقيمة التى أقطن بها الآن

- ليست العباسية كما تظن ، ان فيها الكثير من الاخياء
الشعبية الملائمة جدا ، ومع ذلك أترك هذا لى وسوف ترى ..

- يفعل الله ما يريد

نطق هذا فى إيمان لا حد له ، ثم نظر اليها وقال :

- هه .. لتبدأ الدرس الاول

فقال ضاحكة وهي تتناول الكراسة من على الطاولة التى
أمامها :

- سيكون ثقيلا من غير شك

- لماذا ؟

- لانك غير منشرح الصدر الليلة

- قلت يفعل الله ما يريد ، هه لتبدأ الدرس

فقالت وهي تضع الكراسة أمامها وتمسك بالقلم :

- اتفضل ..

فصمت حيناً طويلاً ثم رفع عينيه اليها وقال :

اكتبى أولا فى وسط الصفحة الاولى .. بسم الله الرحمن
الرحيم .. وبه نستعين

فاشرق وجه الفتاة وهي تكتب ما أملاه عليها بعناية
وخط جميل .. وبعد أن كتبت قال لها :

- أى شىء يضايك فى العربى

فقال ضاحكة :

- صدقنى ! اذا قلت لك .. ان اسمه يضايقنى ..

فقال وهو يجارها فى الضحك :

- لهذه الدرجة !

- ثقيل ومعقد ، جر ، ونصب ، وكسر ، واعراب ..

فقال ضاحكا :

- وماذا تقولين اذن عندما تدرسين المتن ، والفقه والعروض

ثم نظر اليها وقال :

- لعل الاعراب هو الذى يضايقك بعض الشيء

- بل ينغص على حياتى .. ذهب عمر لينام .. عمر لم

يذهب لينام .. شرب عمر الشاي .. عمر لم يشرب الشاي

.. مالى أنا شرب أو لم يشرب ..

فقال بعد أن أغرق ضاحكا :

- انك تتوهمين .. اعراب هذه الجمل البسيطة من أيسر

مايمكن ، اكتبى ..

فتناولت القلم ونظرت اليه :

- احتفظ عمر بـ

فقال ضاحكة :

- تانى عمر ؟ ..

- دعى عمر هذا الذى يضايقك وليكن مثلا .. مثلا ..

وأخذ يفكر فى اسم علم غير عمر ، فقالت هى ولكن دون

أن تنظر اليه :

- امام مثلا ..

فقال مبتسما فى ابتهاج :

- امام .. امام .. اكتبى ياستى .. احتفظ امام بـ ..

بـ ..

فقالت وهى تضحك :

- يا ترى بماذا احتفظ ؟ ..

فقال وكأنه عثر على مايريد :

- احتفظ امام بذكرياته ..

فقالت وهى تضع القلم ضاحكة :

- ليس لهذا محل من الاعراب ..

- لماذا ؟ ..

- لانك قطعاً لم تحتفظ بها كلها .. كما احتفظ أنا بها

كلها ..

- ومن قال للو ؟

- اذن قل لى ماهو الذى احتفظت به .
- أيام الطنونة .. القرية .. والحارة .. ودهليز المرعشلى
عم نوفل .. عم فضل السقا ..
- وماذا أيضا ..
- ودار الاستاذ انناظر .. وابنته سلوى
فقلت وهى تخفض عينيها :
- وماذا أيضا ؟
- والجرن . وفوانيس رمضان .. ولعب الاستغمايه وجمال
المالح .. وحلقة ومضرب .. والسهر للفجر
- وماذا أيضا ؟ ..
- وخالتى مقبولة .. والترمس .. والسودانى .. وكيزان
الحلبة والحلوى انطحينية .. و .. و ..
- وماذا ؟
فقال ضاحكا :
- وسرقة البيض .. والعلة التى مازلت اذكرها
- وماذا أيضا ؟ ..
وانخفض صوته وهو يتمتم فيما يشبه الحجل :
- والكرة (الشراب)
فخفق قلبها وتعالق دقاته ، وصعد الدم الى وجهها فورده ،
وتمتعت بصوت شبه مختنق وهى تنظر الى الارض وتضغط
باصابعها المضطربة على القلم الذى فى يدها :
- وماذا أيضا ؟
- وليلة السفر ، والقطار الذى يبتعد عن القرية ، والموال
الذى كان يغنيه عم غنيم غفير المحطة ، والذى أسال دموعى ،
وأنا أستمع اليه وما زالت تسيل كلما ذكرته ..
- ماهو ..
- زعق الوابور على السفر ..
قلت رايحين لين
ح تغيبيوا سنة
ولا تغيبيوا اثنين
ياللى ملكتو الفؤاد
ياكله جوا العين
- تسمح اكتبه ؟ ..
وبينما هو يعليه عليها وهى تدونه على هامش الكراسية
أقبلت الست صبرية حاملة صينية الشاي ، وما ان رأتها تكتب
حتى ابتهجت ابتهاجا شديدا ، وقالت لامام وهى تناوله كوبه
الشاي :

- أعمل معروف • أحسن دى فى العربى •• حضر قلم ••
وبعد إن قدمت الشاى للاتنين وحدثت أن تخرج عادت
ووفعت عند الباب مخاطبة الشاب :
- ولكن اسمع •• حاذر أن تشغل بالدرس الذى تعطيه
لها عن درسك انت ، ليس المهم أن تنجح هى ، وإنما
المهم أن نحصل انت على - الشهادة - هذا العام
فالت ذلك ولم تنتظر جوابا وخرجت ، ولم يدر الشاب
لماذا خلق قلبه لهذا القول ، ولم يدر أيضا لماذا رنت فى أذنه
كلمة محمد بن له - إذا حصلت على الشهادة استطعت أن نحصل
على سلوى - ونظر الى الفتاة فراها تنظر فى خجل الى الارض
وفد تورد وجهها عن ذى قبل ، ومرت لحظة صمت طويلة
عليهما ، حانت خلالها نظرة من الفتاة الى وجهه فرأته يسبح
فى تفكير عميق ، فقالت له :

- فيم تفكر ؟

- لا شيء ، لا شيء ••

- وهل زال الشيء الذى كان يضايك عندما أقبلت ؟

- الحمد لله ، عندما رأيته زال كل شيء

نطقها الشاب بسرعة ومن غير أن يدرك ، ولما فطن الى ما قال
والى ما فيه من حرج ، احمر وجهه خجلا وارتابك ارتبساكا
شديدا ، وقال وهو يعود ثانية الى يديه ويعصر أصابعه :
- أقصد اننى أحس كلما جئت الى هنا ، اننى بين أهل

وعشيرتى ••

فقالت غضبى تزم على شفيتها فى طفولة محبة :

- ورؤيتي •• ألا تسرك ••

- بل تسعدنى ، وتخلف عنى الكثير من المتاعب ولولا
ذلك لما جئت الآن

فسأله فجأة :

- وما هى الاشياء التى تسبب لك المتاعب ؟

فعاوده الاضطراب بعض الشيء وقال :

- أشياء كثيرة •• كثيرة جدا

- منها ••

فصمت ولم يجب ، فقالت :

- أفكر عنى شيئا ؟

- حتى إذا رغبت فى ذلك لم أستطع ••

- اذن قل ، ما الذى يؤيك الى هذا الحد ••

- قلقى على أمى المريضة ، وشوقى الزائد لرؤيتها

- انها بخير ، وسوف أجعل أبى يكتب لها خطابا يستفسر
عن صحتها ...

- شكرا ..

- قل وماذا أيضا ..

- هذا السكن الذى أقطنه ..

فنظرت الى أسارىه التى أظلمت فجأة وقالت :

- الى هذا الحد يضايك هذا السكن ؟

- بل يخيفنى ، اننى أتمثل باب غرفتى الآن أشبه بشعبان
ضخم ، فاتحافكيه ، شاهرا أنيابه ، ليلتهمنى ..
فقالت فى ذعر :

- ولماذا فطنت فيه طالما هو بهذه البشاعة ..

فصمت ولم يجب ، وراحت هى تتطلع اليه ، والى العبوس
المرتسم على وجهه ، ثم قالت مشفقة فى حنان كبير تسرب مع
صوتها الناعم الى قلبه فارضاه وأطربه :

- سوف لا أعود الى البيت غدا الا بعد أن أجد لك السكن
الذى تطمئن اليه ..

- أنا لا أعرف كيف سارد لك كل هذا الجميل ..

فقالت ضاحكة :

- ان هذا ميسور جدا ، عليك أن تسرق ثلاث بيضيات

أخرى ، وتشتري لى بها حلالة طحينية ..

فضحك حتى استلقى ، وتركته يضحك ، ثم قالت جادة
وهى ترنو الى عينييه الجميلتين ووجهه الذى يقطر صفاء وطهرا :

- كنت أظن أن الذى يشغلك هو نفسه الذى يشغلنى بل
ويسبب لى بعض القلق ..

- ماهو الذى يشغلك ؟

- رغبتى فى أن تنال الشهادة هذا العام

- عندى ايمان صادق باننى سأنالها باذن الله

فقالت فى فرحة غامرة وهى ترنو اليه نصف ارادة :

- اذن ، أعد لك هدية النجاح من الآن

فتذكر ما قاله له محمد بن ، ونظر اليها بعينييه الواسعتين .

وقال بصوت لا يعرف لماذا خرج خافتا أشبه بالهمس :

- ولكن ماهى الهدية التى ستعديدها لى ؟

فتمتمت متوردة الوجه وهى تغيب بعينيها عن وجهه
وتنظر الى الارض متممة فى خجل :

- لا أعرف

- أنا أعرف ..

فقالته وهى مازالت تنظر الى الارض :

- ماذا تعرف ..

- أعرف ..

وأمسك ولم يتمم ، ومنعه الحياء من أن يقول لها الشئ الذى يريد ، يحدثها عن السعادة التى يعيش فيها ، والتى يستمد منها قوته ، وظل صامتا ينظر الى الارض ، وظلت هى أيضا صامته تنظر الى الارض ، وطالت فترة الصمت هذه بينهما طويلا .. طويلا جدا ، وامتدت بالاثنتين الى أشياء كثيرة مجهولة .

تستشعرها الاحاسيس وتهزج بها القلوب ، وتترنم بها العواطف وتجعل الجسد كله أشبه بالطائر الذى يحلق فى عوالم شتى من البهجة .. واللذة .. والسرور تماما كتلك التى حلقا فيها ذات ليلة .. ذات ليلة خالدة .. ليلة لا تنسى .. ليلة كانت هى الحياة .. وكانت هى الدنيا .. وكانت هى العمر .. وكانت هى الذكرى .. ليلة انهارت عليهما كومة التبن .. واكتشفت فيها سرقة كورة من الكور .. فارتعشت الاصابع وخفقت القلوب ، واشتعلت الاحاسيس ، وهزج الجسد ، وغنت الحياة ، ورقصت الدنيا ..

وظلا كذلك يحلقان الى أن هزج عصفور فى السماء ، وأرسل صوتا أسبه ما يكون برعشة وتر .. أو رجفة قلب أو اختلاج شفاة .. ورن الصوت فى أذن الفتى :

- قل .. تعرف ماذا ؟

ففتح الشاب عينيه ، محاولا أن يفيق من ذلك الحلم الذى يعيش فيه ، ومسح على لسانه بشفتيه ، وقال وهو ينظر الى صورة صغيرة لسوى بملابس المدرسة أمامه على الحائط :

- أعرف انك ستهديننى هذه الصورة ..

فقالته وهى تخرجها من الاطار وتقدمها اليه :

- ظننتك ستطلب شيئا كبيرا ..

فقام وهو يتناولها من يدها متلهفا ويضعها فى جيبه وينهض سريعا كمن يريد أن يهرب بشئ ، ولما رآته يتجه الى الباب قالت :

- ولكننا لم نبدأ الدرس ..

فقال ويده مازالت على الجيب الذي فيه الصورة فوق القلب :

— دائما اليوم الاول فى الدراسة ، يتفق فى الاعداد للدرسى
فقالته وهى تنظر الى الارض ، وتمد يدها لمصافحته :

— ومتى ستعود ؟

— غدا ان شاء الله .

وبانما كما هبط هو السلم يحرك اصابع يده ، التى كانت
فى يدها ، ويضغطها ويفردها ، وهو يتحسس حائط السلم .
كانت هى فى الغرفة ، تحرك اصابعها وتضغطها وتفردها
وهى تتحسس الكراسة ، التى كتبت عليها بخط يدها . .
— احتفظ امام بذكرياته . .

الفصل السابع عشر

وهبط الى الطريق ، وغمرته وحشته واكتنفته ظلمة
الحواري والازقة التي راح يسير فيها ، بيد انه تجلسد
وتماسك وراح يسير ، .لانه كان لابد له أن يسير ، الى أن
بلغ أول الزقاق ، وطالعه الخوخة ، والجنزير الضخم المعلق
فى وسطها ، فاذا به يتراجع خائفا ، وأخافه هذا المنظر ،
وأراد أن يرتد راجعا ، وحرك قدميه ، وحاول أن يدير وجهه
وينطلق راكضا ، بيد أن رجفة ارتجفتها عيناه فتغير المنظر
أمامه ، ورأى الباب قائما تتوسطه الخوخة ذات الجنزير الضخم
ومد يده التي كانت ترتعش وجفف العرق البارد الذى كان
يتصبب من وجهه ، واقترب خطوات ومد يده الى الجنزير وهو
يبسمل ويستعيد بالله ويتلو آية الكرسي وما ان فرغ منها حتى
انفتح له الباب فى يسر اطمأن اليه كثيرا ٠٠ لان الجنزير لم
يحدث تلك الاصوات المزعجة التي تعود أن يحدثها ، وكان ذلك
يهمه جدا ، لان الذى كان يطمع فيه ويرجو من الله تحقيقه هو
أن يبلغ غرفته وأن يتمكن من احكام غلق بابها خلفه قبل أن
يشعر به أحد ، حتى اذا ما طلع النهار استطاع أن يدبر من
أمر نفسه الكثير ، حتى ولو أدى به الحال أن يعود ثانية الى
لوكاندة المدينة المنورة ، حتى ولو أنفق بدل القروش الخمسة
٠٠ عشرة ، وبدل أن يمكث يوما بغير طعام يمكث أياما ، فكل
ذلك أحب اليه مما يدعونه اليه ، وقد كان فعلا حذرا الحذر
كله ، موفقا للتوفيق كله ، فقد استطاع أن يعيد الخوخة الى
ما كانت عليه ، والجنزير الى مكانه ، وأن يخترق الدهليز دون
أن يشعر به أحد ، ولا حتى الاستاذ حسبو الذى كان فى
السيرجة مع بهلول ، يرتب له شئونه ويعد له عليقة وهو
مخمور يترنح ويتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويفنى
مبتهجا ، وزجاجة الحمر فى يده :

سبح سواقى بتنعى لم طفوا الى نار
يا منية القلب قول لى ازاى عشقى الجار
يبقى النظر فى النظر والقلب قايد نار

وكما يطمئن الفريق ويلفظ آخر أنفاس (الخوف ، عندما
يمسك بحبل النجاة ، اطمأن الشاب ، وتطلعت أساريره عندما

دخل غرفته دون أن يراه أحد ، وأغلق بابها خلفه اغلاقاً محكمًا ، واطمان الى قوة رتاجها والى انه لا يمكن لقسوة ما أن تقتحم عليه غرفته أو تحرك حتى هذا المزلاج الضخم السميك وراح وسط الغرفة يجفف عرقه وينزع ثيابه رويداً بعد أن أشعل المصباح ، وهو يبتسم من حين الى آخر ، فقد تذكر حديثه مع سلوى ، ونظرات الحجل التي تبودلت بينهما وعبارات الاخلاص والحب التي ترددت على شفاههما وتذكر مع ما تذكر الشهادة ورغبة سلوى في حصوله عليها ورغبة أمها أيضاً في ذلك ، ورنّت في أذنه كلمة محمد بن له مرة أخرى - اذا حصلت على الشهادة استطعت أن تحصل على سلوى - وانفجرت أسارير وجهه. وهو ينظر الى الصورة ويتأملها وانفجرت أساريره مرة أخرى وهو يمد يده في ايمان لاحت له الى الرف الخشبي الذي فوقه بعض الكتب التي عليه أن يدرسها ويستوعبها ويحل طلاسمها ، ولم يشعر هذه المرة بصعوبة هذه الكتب أو ثقل موادها كما كان يشعر من قبل عندما يتناولها ويبدأ القراءة فيها ، كما أشعل في حذر ما بعده حذر واهور الغاز وأعد عليه كوبة من الشاي الثقيل الاسود الذي يساعده على السهر ، وجلس على الارض أمام المصباح ، يقرأ ويدرس ويذاكر وكلما نسي نفسه ونسى أيضاً حذره الذي يجب أن يحذره ، وارتفع صوته بالقراءة كما تعود أن يرفع صوته وهو يقرأ ، عاد سريعاً وزم على شفتيه في اضطراب ، وراح تتلث حواليه خشية أن يكون قد سمعه أحد ، وحين نطمن الى أن أحداً لم يسمعه يعود الى القراءة سرا ، وظل كذلك زمناً لا يدري تحديده وهل طال أم قصر . . وانما الذي يدريه انه أحرق نفسه اغراقاً في الكتاب الذي بين يديه ، وراح يقرأ ويعيد ويحفظ وراح أيضاً يميز ذات اليمين وذات الشمال ، وهو مغمض العينين يتلج ما يريد أن يحفظ صمت مرتفع كعادته عندما يريد أن يحفظ جيداً ، وإذا به فجأة يسمع شيئاً . . لم يسمعه بأذنه كما تعودت الناس أن تسمع دلائها ، وانما سمعه بقلبه وباحساسه ، ففتحه عنه فإذا بشفاهات منتحبة أمامه كالسهم أو كالدهل ، أو كالقدر لا يعرف كيف نفذ اليه ، وهل هو هبط عليه من السماء ، أم خرج من الارض ، ونظر الدماء تاعاً ، ممسكاً بشفتيه آخر لفظ كان ينطق به وهو يقرأ ، كما اتصلت أصابعه على الكتاب الذي كان في يده ، وراح ينظر خائفاً . . رأت نظراته المضطربة فيما رأت الباب الذي بين الغرفتين والذي كان خلفه دولاها الكبير . .

رآه مفتوحا بعد أن نقل الدولاب الذى كان خلفه من مكانه ،
فعرف عند ذلك انها حقيقة ، وانها لم تكن خيالا كما كان يظن
ولم تكن أيضا عفريتة خرج اليه من الارض أو هبط عليه من
السماء ، وانما هى شفاعات جاءت من هذا الباب الذى لم يكن
يذكره أو يذكر أن له وجودا ، وارتعدت فرائص الشاب ، وهو
جالس أمامها القرفصاء على الارض ينظر اليها ، وتنتظر اليه ،
وامتدت هذه النظرات بينهما لحظات ، انحنت خلالها عليه
وراحت ترتب على كتفه التى ترتعد تحت يدها وهى تقول :
- ما الذى يخيفك الى هذا الحد ؟

فلم ينطق وانما انفجر باكيا ، وراح يولول كطفل ، فأخذته
الى صدرها وراحت تمسح على رأسه بيدها وهى تجفف له
دموعه التى انسابت على صدرها العارى دافئة فزادتها هى
أيضا اضطرابا وهى تقول :

- قلت لك ما الذى يخيفك الى هذا الحد ؟
فرفع الشاب وجهه المبلل بالدموع من على صدرها وفتح
عينيه . ولما رأى صدرها ، قال يخاطبها بصوت راعش
مضطرب ، كما يخاطب القاتل قاتله قبل أن يجهز عليه :
- اننى أخاف منك ..

فقالت وهى ما تزال تمسح على رأسه ، وتتحسس شعره
بأصابعها :
- تخاف منى أنا ..

ولما لم يجب قالت وهى تمسك بذقنه وتنتظر اليه :
- قل .. تكلم .. تخاف مما ..
- قلت منك أنت .. منك أنت ا

- وهل أنا أخيف الناس الى هذا الحد ؟
فقال الشاب باكيا :
- أجل .. أجل ..

فجحظت عينها فى دهشة وهى تساله :

- أنا أخيف الناس .. كيف .. قل .. تكلم .. كيف
أخيفهم ومم يخافون ..
- من الله .. من الله ..

فزمت على شفيتها ثم قالت هامسة بعد حين :
 - وهل فيما بيننا ما يفضب الله ..
 - أخشى أن يكون ..
 - يكون ماذا .. تكلم ..
 فصمت ولم يجب .. فمدت يدها ومسحت على رأسه مرة
 أخرى .. ولما لاحظت اطمئنانه بعض الشيء قالت وهى ماتزال
 تمسح بأناملها المرتعشة على رأسه المحموم :
 - قل .. تكلم .. تخشى ماذا ..
 فأراد أن يقول شيئا ولكنه لم يقدر .. فصمت مطرقا ..
 ولما طال صمته قالت :
 - لماذا لا تريد أن تتكلم ؟
 - ماذا أقول ؟
 - ما الذى جعلك تتركنى فى العربة وتفر هاربا ..
 - لأننى .. لأننى ..
 ثم أطبق على شفتيه ، فقالت هى :
 - لأننى أردت أن أقبلك ..
 وكأنه ظفر بالرد الذى لا يخرجه ، لذلك نطق على الفور :
 - أجل .. أجل ..
 فسرحت طويلا ثم قالت وكأنها تريد أن تغمض عينيها :
 - ألم تقل لى بأننى كامك ؟
 فنظر اليها الشاب ذاهلا وقال :
 - أجل .. قلت لك ذلك ..
 ثم عاد فتمتم وهو يحول نظراته عنها فى ألم ، وكأنه
 يخاطب نفسه :
 - وكنت أقولها من قلبى .. علم الله ..
 فصمت لحظات ثم قالت له :
 - هل بين الام وابنها هذا الذى تظن ..
 فلم يجب ، وأطرق الى الارض . فاقتربت منه قليلا ،
 وقالت وهى تربت على كتفه :
 - ألم أقل لك يا بنى اننى يتيمة لا أب ، ولا أخ ولا زوج
 ولا ولد .. ولما قلت لى اننى كامك . ظننتك ابنى حقيقة ..

وأردت أن أقبلك • فهل فى هذا ما يفضب الله • • ويفضبك
الى هذا الحد • •

فقال فى فرحة لا حد لها :

— حقيقة ان بعض انظن اثم • • و • •

بيد انه عاد فاعمض عينيه سريعا • • عندما رأى صدرها
العارى ، وقميصها الخفيف الذى انشق من أمام عـلى ثديين
بارزين مخيفين • • ولما عاودته اطراقتة قالت وهى تربت أيضا
على كتفه :

— تكلم • • ماذا كنت تريد أن تقول • •

فتمتم بصوت خافت وهو ما زال ينظر الى الارض :

— اذا كان هذا حقيقة • فأرجو أن تغفرى لى هذا الطن • •
فنظرت اليه طويلا هذه المرة • ثم قالت بصوت متهدج فيه
الكثير من البكاء :

— والآن أطل ساهرة حتى تجيء ، لكى أسألك ، لماذا
هرب الابن من أمه • فتقابلنى هذه المقابلة الجافة ؟

— قلت لك اننى أخطأت • وحقيقة أنا أسأت الظن •

فادارت وجهها بعيدا وقالت وهى تبكى بصوت مزتفع :

— وما الذى جعلك تسمى بى الظن ؟

— صور لى الشيطان أشياء كثيرة • • ووسوس لى أيضا
بأشياء كثيرة •

فالتفتت اليه والدموع فى عينيها قائلة :

— ماذا صور لك ؟

فأطرق الشاب الى الارض ، ولم يجب • • فقالت وهى تمد
يدها الى ذقنه مرة أخرى ، وترفع وجهه الى وجهها :

— تكلم • • قل • • ماذا صور لك الشيطان • •

— أشياء كثيرة كلها فتنة واغراء • • وخشيت •

ثم زم على شفتيه ولم يتم • فقالت له بصوت لا يكاد يبين ،
ويدها المسكة بذقنه ترتعش ارتعاشا عنيفا :

— خشيت ماذا يا امام • • قل • • تكلم • • أنا امك • •

— خشيت أن • •

• وزم على شفتيه مرة ثالثة أو رابعة • • وقال وهو يكاد
يبكى :

- أرجو أن تعفينى من هذا الحديث ..
فقلت وظل ابتسامه حلوة تتألق على شفتيها المبلتين
بالدموع :

- أنت تسمى بى الظن الى هذا الحد .. وأنا قلبي يحرم
على العشاء ، حتى تجيء ..

- أنا سببت لك كل هذه المتاعب ..
قالها الشاب فى اشفاق وأسف لا حد لهما .. فقلت هى
الآخرى فى أسف مرير :

- وما زال العشاء أمامى لم أقر به ..
- أرجو لك عشاء هنيئاً ان شاء الله ..
فقلت على الفور ضاحكة فى بشر :

- سيكون هذا اذا تناولته الام ، مع ابنها العزيز ..
- أنا تعشيت ، والحمد لله ..

- اذن ، فلن أتعشى أنا ..

- قلت لك أنا تعشيت ..

فقلت وهى تنظر الى عينيه الجميلتين :

- على الاقل .. اجلس مع أمك حتى تتناول عشاءها ..
ولم تمهله حتى يجيب ، وانما مدت يدها اليه وأنهضته ،
وسارت أمامه ، وسار هو خلفها ، وحانت منه التفاتة ، وجاءت
منه مصادفة على الرغم منه . فرأى ظهرها الذى يكاد يكون
عارياً ، والقميص الاملس الناعم ، الذى يتماوج فوقه ويهتز
فتتماوج معه وتهتز أشياء . فأغمض الفتى عينيه سريعا فى
ألم ، كما يغمضهما الانسان تماما على نار تلفحه . وراح
يتمتم وهو يذلف خلفها الى الغرفة فى الليل ببعض آيات من
القرآن . ويتلو سرا فى سرعة واضطراب : « أعوذ برب الناس
.. ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس .
الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس » .

ولما دخل الغرفة وفتح عينيه وكان قلبه قد اطمأن بعض
الشيء . لفت نظره السرير الضخم المرتفع عن الارض ارتفاعا
كبيرا والدرجات الثلاث المبطنة بالقطيفة التى توصلك اليه .
ورأى الكلة الحمراء التى تشبه قبة السماء المنقلبة ، والمساند

الثلاثة ذات القטיפه الخضراء والصفراء • فقال ضاحكا ، وكأنه يتذكر شيئا :

- مازالت هذه الاسرة باقية الى الآن ••
فقالت له ، وهى تنظر فى ضيق الى الدولار الذى ازدحمت به الغرفة بعد أن نقلته من خلف الباب :

- وهل رأيت سريرا مثله ••

- سرير أُمى كان مثله تماما ••

ثم عقب ضاحكا :

- وكنت لا أستطيع أن أصعد اليه الا اذا قفزت كما يقفز الحصان تماما ••

فقالت ضاحكة :

- وهل كنت تنام فى أحضانها ••

فقال وهو يضحك فى سداجة لا حد لها :

- وظللت أنام فى أحضانها الى أن بعنا السرير • والبيت ايضا وانتقلنا الى دهليز المرعشلى •

فقالت وهى تحاول أن ترحح الدولار من مكانه ، لتفسح الغرفة :

- أنت طيب القلب ••

فقال وهو يبعدها عن الدولار ويقترب هو منه :

- أين تريدین وضعه ؟

فقالت وهى تشير الى حائط آخر غير الذى به الباب الموصل للغرفتين :

- هنا ••

فلم يظن أبدا الى شيء •• وقال وهو ينظر الى ضخامة الدولار :

- عليك أن تستندى فقط •

وفى أسرع مما كانت تظن ، حمل الدولار على كتفه ، ونقله الى المكان الذى أشارت اليه به • وراحت هى تنظر اليه والى عضلاته التى نفرت مرة أخرى كما نفرت وتجمدت يوم رفع بهلول من البئر • وقالت ضاحكة فى بشر وهى تجره من ذراعه الى الكنية المقابلة للسرير ، والتى أمامها العشاء :

- أنت ضيفى الليلة ..
ثم أردفت وهى تجلسه بجوارها على الكنبه ، وترفع الغطاء
من على الطعام :

- ستاكل معى ... اليس كذلك ؟
فنظر نظرات سريعة الى الطعام الذى حفلت به المائدة وقال
وهو ينظر بالذات الى دجاجة سمينة كانت تتصاعد منها رائحة
حلوة :

- قلت لك تعشيت .

- واذا استحلقتك بأمك ..

- هذا يمين عزيز ..

فقالت وهى تنقل الدجاجة من مكانها ، وتضعها أمامه :

- اذن فأنت تعزنى حقيقة . واذن ستاكل ..

وراح الشاب فى غفلة من نفسه يلتهم الطعام التهاما ،
وراحت هى تنظر اليه فرحة فى صمت كما كانت تنظر اليه
تماما فى المطعم . وطالت فترة الصمت بينهما حيناً ، الى أن
حانت التفاتة من الشاب الى الباب الذى بين الغرفتين والذى
كان لا يزال مفتوحا . فأحس بشيء من الريبة أو الخوف يعود
اليه ثانية . فأنهى طعامه سريعا وفجأة قال لها :

- ولكن لماذا أتعبت نفسك ونقلت الدولار من وراء هذا
الباب . ولماذا أيضا دخلت على منه ولم تدخل من باب الدهليز
كالعادة ..

فأدركت على الفور كل ما يحاول بخاطره ، وقالت وهى
تنهض لترفع المائدة وتعد له الشاي :

- أهذا الذى أغضبك ؟

- بل زاد من شكى ..

فقالت فى حزن وهى تحسر عن ساقها وبعض فخذيهما
وتجلس القرفصاء لتتناول وإبور الغاز من تحت السرير :

- صنعت هذا الذى صنعت . ودخلت عليك من هذا
الباب . لأن الايام علمتنى أن الناس لا ترى دائما الا الجنايب
الاسود فقط ..

فقال وهو يحاول أن يبعد عن عينيه تلك الساق التى انحسر
عنها الثوب حتى ثنية الفخذ :

- أي جانب أسود فى هذا ..
- لو- اننى طرقت بابك فى هذا الوقت من الليل ، ورأى
حسبو ، أو أحد من الذين يعملون فى السيرجة • فماذا كانوا
يظنون ..

فقال الشاب فى حدة تشبه الغضب :
- كانوا يظنون ماذا .. قاتلهم الله ..
فقالت ضاحكة ، وهى تنهض ، وتجلس بجواره ، ملقية
بذراعيها العاريتين على كتفه ، ووجهها لوجهه :
- يظنون الذى ظننته أنت تماما ..
فقال وهو يغمض عينيه ، عن شيء ما على الصدر : ..
- أنا لم أظن شيئا ..

فمدت إحدى ذراعيها ، وأمسكت به من أذنه ، متصنعة
الغضب تنظر اليه بنصف عين :
- بل ظننت ..

- ثم قالت وهى تعرك أذنه مستطردة :
- قل • لا تكذب • ظننت أم لا ..
فتتمت ووجهه الى الأرض :
- ظننت ..

فقالت وهى تمسك به من ذقنه وترفع وجهه الى وجهها
الذى التهب فجأة :
- ظننت ماذا ؟

فلهشت أنفاسه • وهو يقول :
- قلت لك انه الشيطان .. ومع ذلك اعتذرت لك •
فتهدج صوتها وهى تأكل من وجهه بعينيها :
- أهذا الاعتذار من قلبك ..
فاضطرب وهو ينظر الى فخذهما التى تعرت بجسواره ،
وتتمت :

- من قلبي ..
- أقسم ..
- أجل .. أقسم .. أقسم ..
فاقتربت منه حتى لفحت أنفاسها الدافئة وجهه كله ، وقالت
وكل شيء فيها يرتعش :

- وتقسم على شيء آخر •
- فتمتم مرتعشا بين ذراعيها :
- ما • ما هو •
- أن لا تعود ثانية الى هذا الظن السيئ •
- فقال مضطربا ينظر الى ذلك الشيء الذى على الصدر :
- أبدا • أبدا •
- حتى ولو أحسست احساس الامومة الذى أحسسه الآن •
- و • • وعانقتك •
- أ • • أ • • أبدا • • أبدا •
- و • • وقبلتك •
- أ • • أ • • أبدا • أبدا •
- وأخذتك هكذا بين أحضانى •
- وفجأة جثت عيناها جحوظا مخيفا • وتصلبت أسارير وجهه • واكفهرت سحنته • حتى غدت مقبرة قاتمة • فخافت وارتعدت فرائصها ، وأغمضت عينيها متراجعة تريد أن تصرخ أن تستغيث • • أن تهرب من بين ذراعيه • ولكنه كان قد أطبق عليها فى عنف ، كما يطبق الوحش على فريسته فى عنف • فلم تستطع أن تهرب • ولم تستطع أيضا أن تستغيث وكل الذى فعلته أنها مدت ذراعا مرتعشة تضطرب • الى مصباح زجاجى كان بجوارها على البريه • ومن ثم أطفأته رويدا • • ورويدا أيضا تسلل من الباب الذى بين الغرفتين ، والذى كان لا يزال مفتوحا • تسلل نور شاحب مصفر • وتسلل مترنحا على الارض • يقصر ظله حيناً ويمتد ظله حيناً آخر • ويلتصع نوره الشاحب مرة ويخفت مرة أخرى • حتى لكانه شعاع ضئيل ينبعث من عين راهب كهل يبحث عن - انسان - لم يعد •
- فى حين ظل السراج نفسه فى الغرفة الاخرى طوال الليل تتارجع زبالته فوق كتابين من كتب الفقه والدين • حتى لفظ آخر أنفاسه ، مع الفجر •

الفصل الثامن عشر

منذ ذلك اليوم • أو منذ هذه الليلة تغيرت أشياء كثيرة • •
تغير حتى فضاء الدهليز وغدت ظلمته الداكنة ظلا ظليلا
تستريح له العين • وغدت وحشته المقبضة أمنا جميلا وهودوا
محبيا ترناح اليه النفس • وتغير أيضا صوت السرجة الاجش
الذى كان يشبه فحيح الافاعي فى الليل ، ورائحتها الكريهة
التي كانت تضيق بها النفس ، وغدا الصوت ينبعث فى الليل
كاللحن الجميل ، وغدت رائحتها الكريهة كالمسك أو الطيب
حتى - الخوخة - ومنظرها البشع ، والجنزير الضخم الذى
يشبه الثعبان الكبير الفاغر فكيه ، الشاهر لأنيابه • غدا جبلا
رفيعا كأوراق الورد ، ناعما كنسيج الحرير • وتغير كذلك
الشباب • فلم يعد أبدا امام بلتاجى حستين كما كان من قبل
أو الشيخ امام المجاور فى الازهر • وانما غدا شابا وسيما ،
وافنديا أنيقا للغاية • يرتدى البذلة الفخمة ذات اللون الجميل ،
والازرار الستة المصقوفة على الجانبين ، والطربوش الاحمر
الفاقع بدل العمامة والكاكولة • كما راح المنديل الاحمر ورباط
الرقبة الذى من لونه يزينا صدره ويتألقان نورا على الصدر •
حتى شعر رأسه الحتمن الكث الذى كان لا يعرف الحلاق الا نادرا
غدا ناعما لامعا مصفقا تنبعث منه رائحة عطر القسيس الزكية
التي تشمها على بعد أمتار •

وتغيرت غير ذلك أشياء أخرى هامة منها أو لعل أهمها ، وجه
المعلمة شفاعات نفسه • فقد غدا وجها جديدا تكاد لا تربطه
صلة بالوجه القديم • فقد ذهب تلك الغبرة وذلك العبوس
الذى كان يكتنفه دائما ، وغابت تلك الخطوط السوداء وتلك
التجاعيد والاخاديد التي كانت قد بدأت ترسّم معالمها على
الوجه كما زالت أيضا تلك الدائرة الزرقاء التي كانت تتراعى
حول العين حتى لتكاد تلتف بها • وغدا الوجه فى مجموعه ،
مشرقاً فتانا يقطر شبابا وبهاء ونورا • تزينه عينان جميلتان
تشعان نورا يشبه الابتسام ، أو ابتساما يشبه النور •
ويتوسطه فم لاينى يضحك دائما ، يضحك لنفسه • ويضحك
للناس • ويضحك أيضا للنهار اذا أدبر • ويضحك ويفرق
فى الضحك لليل اذا أقبل ولا تنى أيضا شفاهاه الغلظة الحمراء
تتلطف وتبتسم حتى فى النوم • كما غدا الشعر الطويل الناعم

الدى كانت تتهدل خصلاته حيثما اتفق • مرة على الظهر ومرة على الصدر وأخرى بين النهدين ، والننى كان لا يعرف الغسل الا من الحين الى الحين ، غدا فاحما ناعما تطرحه دائما على الكتفين العاريتين ، كما تنطرح الرقعة السوداء الناعمة على انعاج • وغدا الجبين تزينه القصة الملتفة به كما يلتف الغمام حول الفجر ليزيد من بهائه ويزيد هسو من ظلمته ، وتتمايل عليه - اى على الجبين - كله حبات القرنفل وخرج النجف والبلابل السبيع التى انسابت على عقدة المنديل أبو أوية وتدلت مع أطرافه ومع خصلة شعر واحدة على يمين الاذن ، فيحدث صوت البلابل السبيع مختلطة بصوت القيقاب المصنوع من الصدف ، يحدث صوتا أشبه ما يكون بهزيع الطير أو وسوسة الحلي ، أو أنغام الموسيقى فى الليل تنبعث الى أذنك من مكان بعيد • وتغيرت غير ذلك أيضا أشياء أخرى كثيرة ، كانت لها أهمية كبرى فى حياة بعض الناس ، لعلها زادتهم بؤسا على بؤس • أو لعلها أضفت عليهم أمنا وهدوءا وراحة بال • فهم أنفسهم لا يعلمون • ومن هؤلاء الناس الاستاذ حسبو القط الذى أخذت حياته تسير سيرا مرضيا الى حد كبير - فى نظر من يراه على الاقل - فلم تعد المعلمة كما كانت من قبل نائرة عليه دائما غاضبة عليه أبدا • تقلظ له فى القول كلما رآته • وتمنعه تعنيفا مرا كلما التقت به ، وتتطاول عليه باللسان وباليدين بين الحين والحين بل أخذت تلاطفه ، وتداعبه أحيانا ، بل وتتنذر معه فى بعض الاحايين • ولم تعد تحاسبه ذلك الحساب العسير اذا ما أخطأ فى شئ ، أو أهمل فى خدمة يهلول ، أو أسبأه التصرف فى أمر من أمور السيرجة • بل أعطته الكثير من الحرية ، وأعطته أيضا مطلق التصرف فى شئون السيرجة جميعها • ونقضت هى يدها من هذه المتاعب • وانصرفت الى شأنها ، تغيب ما تشاء وتعود الى البيت متى تشاء • ونتج عن هذا ، أن عن قفيبها الدائم ما مكن الاستاذ حسبو من مضاعفة دخله • فجميع الاوقات التى كان يقضيها فى العمل فى السيرجة راح يقطعها فى كتابة « العرضحالات » وخطابات العشيق والغرام • مما جعله يملك القروش العديدة ، التى يشتري بها الخمر ، ويشترىها بكثرة ملحوظة • وبعد أن كانت الزجاجة صغيرة يتسم لها جيب بنطلونه الخلفى فقط • أصبحت كبيرة وممتلئة بصفة دائمة • بل أصبحت أكثر من زجاجة ، يعب منها عبا ، يعب منها كلما قام أو قعد ، ويعب منها ان

غفل أو استيقظ .. ويعب منها أيضا كلما سألت دموعه .
 فقد كان من عادته اذا أغرق في الحمر أن يبكي .. يبكي
 أحيانا وهو يضحك . ويبكي أحيانا وهو يبتسم .. ويبكي
 أحيانا أخرى اذا ابتهج وارسل صوته الاجش مغنيا ومرددا
 مواله الحبيب الى نفسه :

سبع سواقي بتنعي لم طفو لي نار
 يا منية الذنب قول لي ازاي عشق الجار
 يبقى النظر في النظر والقلب قايد نار

* * *

ولا يدرى . ولا يدرى أحد أيضا ، لماذا كان يردد هذا
 الموال دائما وترتفع به عقيرته كلما أغرق في الحمر ، رأى
 بعينه المحمرتين المقرحتين اللتين كانتا تبدوان من خلف
 منظاره الزجاجي الملوث أشبه بقطعتين من القطن منغمستين في
 الدماء كلما رأى شبح امام مقبلا على الزقاق ، أو خارجا منه
 يتيه في حلته الانيقة ورباط رقبته الفاقع وشعره المصفف الذي
 تنبعث منه رائحة عطر القسيس فيحس الشاب بشيء من الحجل
 فيسرع الخطو أو يخففه . أما اذا التقى به وجها لوجه ، واضطر
 الشاب الى مصافحته . قال له حسبو .. وهو يتمايل من الحمر
 ضاحكا - جملته التقليدية التي لا يغيرها كلما التقى به
 أو تحدث اليه في أيامه الاخيرة :

- أين أراضيك .

- في المدرسة .

- قواك الله ...

ثم يتركه وينصرف يتمايل مخمورا وهو يضحك كمادته ،
 وتسيل الدموع من عينيه كمادته أيضا كلما أغرق في الضحك
 ويظل يسير حتى يبلغ نهاية الزقاق ، ويهبط على مهل متحسسا
 بيديه الواهنتين سلالم السبيل حتى يبلغ نهايتها ، ثم يسير
 بضم خطوات حتى يبلغ « خمارة كريكو » وهي ما زالت قائمة
 الى الآن في ميدان باب الحلق . ويقف بجوار البرميل فاذا به
 المرتعشة بالزجاجة الفارغة والقروش الثلاثة يدفعها الى كريكو
 وهو يقول ضاحكا :

- السولار ..

وتغير ضمن ما تغير أيضا أشياء أخرى ذات بال ..
 أشياء رقيقة ناعمة . ذات أحاسيس ومشاعر وقلب ينبض
 بالحياة وآمال عراض تكاد يبلغ العمر . وتمتد الى الدنيا والحياة ،
 تغيرت هي الاخرى أو لعلها تأثرت على الرغم من بعدها البعيد

عن كل شيء . . . تغير وجهه ، صبح ، كان أشبه بالقمر
الوليد يقطر ضياء وطهرا ، فاذا بالغمام الداكن يكتنفه ويفرقه
في لجة من السواد . وتغير فم رقيق رقة الورد كان لايني دائما
عن الافترار والابتسام لكل شيء كما تبسم الاقحوانة لكل شيء
لسكون الليل . . وقطرات الندى . . وظلعة الفجر . . .
وظلعة الصبح واشراقه النور . . تغيرت وجفت
واصفرت كما تصفر ورود الصيف وتجف أوراق الشجر .
ولولا وعشة تكتنف الشفتين من حين الى حين ،
لظننتها أى شيء غير أنها شفاه حلوة لثغر جميل . وتغيرت
أيضا عيون ومحاجر وأهداب ذات ظلال كانت تبعث السحر
وترسل النور . فغدت معتمة مظلمة تبعث الوحشة وترسل
السواد . وحدث هذا كله من يوم أن انقطع الاستاذ عن
تلميذته ، أو المدرس عن دروسه بلا مقدمات . فقد انتظرت
التلميذة أستاذها في اليوم الثاني ولكنه لم يعد . وهو لم يعد
أيضا منذ أيام ، بل ومنذ أسابيع وشهور وهي قد ظنته في
أول الامر مريضا أو أصيب بسوء . وظنته كذلك الست
صبرية . وظنه كذلك أيضا الاستاذ الشرنوبى . وازداد قلقه
عليه . فذهب اليه في المدرسة وهي المكان الذى يعرفه .
حقيقة لم يجده . وحقيقة أيضا أنه لا يذهب الى المدرسة
بانتظام . وحقيقة ثالثة أنه بخير ، وأنه لم يصب بسوء .
وترك له خبرا يرجوه فيه أن يعود في البيت وأنه في انتظاره
من وقت الى آخر . وحقيقة رابعة أن هذا الرجاء قد بلغه .
ولكنه لم يعمل به . وبذلك قام الاستاذ الشرنوبى بكل ما يجب
أن يقوم به رجل طيب . يهمل أمر انسان يعزه . أما أن ذلك
الانسان لم يستجب الى الرجاء ولم يعمل بما يجب أن يعمل
به الأهل والاصدقاء ، فهذا شأنه هو . وليس للاستاذ
الشرنوبى أو أسرته دخل فيه . ولكن هذا القلب . . هذا
القلب الطفل الآخرس الذى لا يعرف النطق هل ينسى الانسان
الذى أنطقه بأول حرف من أحرف الكلام . وألهب أحاسيسه
كما تتحرك شفاه الطفل وتنطق بأول لفظ في الحياة . هل
ينسى هذا . هل ينسى حياته . . هل ينسى دنياه . . هل
ينسى وجوده كله . . وأخيرا هل ينسى القلب . . القلب الذى
عاد فأصيب بالحرس صبح سنوات ، ثم فجأة عاد الى النطق .

ليلة أن عاد اليه الذى أنطقه أول مرة • هل ينسى ذلك • وهل من الممكن نسيانه • هل فى طوق بشر أن يتساه • ولا حظت الست صبرية هذا كله • وأحست به احساسا عميقا أقلقها ، واشفقّت على ابنتها الوحيدة من هذا الضنى الذى تعيش فيه • والذى شقيقت به هى أيضا لا باعتبارها الام فقط ، ولكن باعتبارها أيضا امرأة تعرف كيف تحس قلوب النساء وتشعر وتتعذب بالحلب الاول • ولذلك اختلست من وقتها ساعة من الزمن كما هربت من الناس جميعا حتى ابنتها وزوجها وذهبت

فيها الى الكلية لمقابلة الشاب • وكم لاقت السيدة المحافظة الحجل ، التى لم تتعود الخروج من البيت ، من صعاب ومشاق ومتاعب فى السؤال والاستقصاء ، ومعرفة الطريق الموصل للمعهد • وركوب الترام وزحام الناس الى أن بلغت المعهد ووقفت على بابه تنتظره خجلة مرتبكة يكاد يوقعها الحجل والارتباك فى شر ما تقع فيه سيدة مثلها • الى أن جاء امام مقبلا من بعيد فأنكرته ولم تتعرف عليه أول الامر • حتى انه عندما أقبل عليها أدارت وجهها خجلا من هذا الافندى الوسيم الرقيق الذى يسير فى دلال ولولا أنه مد يده لمصافحتها لظلت فى مكانها تنتظر الشيخ امام بلتاجى حسنين ، الذى جات من أجله وطلبت مقابلته • ولذلك كانت دهشتها بالفة عندما صافحها وحياها ، فلم ترد عليه التحية ، بل لم سحبت يدها

من يده من فرط المفاجأة التى أذهلتها وراحت تنظر اليه وتفحصه جيدا • الحلة الانيقة التى يرتديها ، والقميص الحريري الذى تزينه ربطة العنق الحمراء ، والشعر المصفف الذى يتضوع مسكا من تحت الطربوش الاحمر الذى مال زره الاسود على

مؤخرة الاذن • وبعد فترة صمت طويلة قضاهما الشاب ناظرا الى الارض فى ارتباك شديد ، راحت تتحدث معه حديثا طويلا • انتهى بانها تركته وانصرفت غير مؤمنة بكلمة واحدة منا قالها لها • لا بالمرض الطويل الذى أقعده عن زيارتهم وعن مواصلة الدروس الى الفتاة • ولا بقصة خاله الذى مات وورثت أمه ماله ، الذى مكثه من أن يعيش ميسورا ويرتدى الزى الافرنجى ،

ويتحلى بالذهب الخالص ، الساعة الثمينة التى يزين بها صدره ، والخاتم الغالى الذى يتألق فى يده ، وأزوار حميصه الذهبية ذات السلاسل الدقيقة اللامعة • لم تصدق شيئا من

هذا كله ، ولا حتى بالوعد الذى قطعه على نفسه بزيارتهم
الليلة أو غدا ، واستئناف الدرس من جديد للفتاة .

وكما خرجت الست صبرية من البيت صباحا صامتة
لا يعرف أحد وجهتها عادت اليه ظهرا صامتة أيضا لا يعرف
أحد أين كانت . بيد أن الصمت أحيانا لغة تفهمها القلوب التى
شفها الحزن ، وصهرها الألم . وقد فهمت الفتاة كل شيء كما
لو كانت فى صحبة أمها لزيارة الشاب ورأته رؤيا العين
وسمعت حديثه كله . ولذلك حاولت ما استطاعت فى ذلك
اليوم أن تتجنب أمها حتى تتجنب حديثا عرفته من ألفه الى
يائه . كما حاولت أن تكون أكثر مرحا وضحكا وابتساما لعلها

بذلك تستطيع أن ترسل بصيصا من نور يزيل ولو بعض هذا
السواد الذى يكتنف وجه الام . وقد نجحت الفتاة فى هذه
الرواية المرحية التى نقلتها ، وفصول الضحك والابتسام
والهناء التى لعبتها . مما خفف كثيرا عن قلب الام ، وأعاد
اليها والى البيت بعض الامن والهدوء وبعض الاطمئنان وراحة
البال .

وظلت الفتاة كذلك الى أن جاء الليل ودخلت حجرتها بيد
أنها لم تكذ تغلق الباب خلفها حتى نزع ثياب التمثيل التى
ارتدتها طوال اليوم . فعاد القلب الى وجيبه والثغر الى ارتعاشه
واللحظ الى رجفته واضطرابه . فصعدت الى الفراش لاهثة
مغمضة العين وألقت بجسدها الذى حطته فى ثياب النوم على

الفراش فى غير انسجام . فبدت فوق الفراش أكثر من فتاة ،
وأكثر من جسم . فهنا ذراع وهناك يد . وعلى الشمال ساق ،
وعلى اليمين عنق . وهناك فى آخر الوسادة شعر ، وهنا فى
أولها وجه . حتى ذلك النور الذى كان يرسل اشعاعه الهادىء
فى الظلام وهي نائمة اذا ما انحسر الغطاء عن فخذ أو انشقت
الثوب عن صدر . تلاشى نوره ، وذهب ضياؤه وان كان قد

بقى أصله يذكر به . تماما كالمصباح الجميل المنطفىء الذى
تراه عينك ، فتكاد ترى معه النور الذى كان يرسله والذى
كان يشعه . . وظلت الفتاة كذلك منطئنة مظلمة معتمة الروح
والجسد ، نائمة كاليقظانة ويقظانة كالنائمة الى أن انقضى
الليل رغم طوله المريب ، لانه كان لابد له أن ينقضى . ونهضت

من فراشها مبكرة كما تعودت أن تنهض مبكرة وحاولت أن ترتدى ثياب التمثيل مرة أخرى ولكنها لم تقدر . فارتدت ثياب المدرسة بدلا عنها وراحت ترتب حقيبتها المدرسية وتضع فيها ما تحتاج اليه من كتب وكراريس وأقلام . فوقعت عينها على كراسة معينة بالذات ، كراسة بيضاء خالصة البياض لم يكتب فيها سوى جملة واحدة فقط . حاولت أن تقرأها ولكنها لم تقدر . ولما أعادت اليها النظر واستطاعت أن تقرأها لم تعرف لها معنى . ذلك لان دمعته من تلك الدموع التي كانت تقطر من عينيها سقطت على لفظ معين من الجملة فطمسته وطمست معه المعنى كله . . والا ما معنى «احتفظ . . بذكرياته» ولكن لماذا تقطر هذه الدموع على هذا اللفظ بالذات على - الاسم - دون سواء . الآن صاحبه مات . وهل من الحتم علينا أن نشيع أمواتنا بهذه الدموع . ولكن هل تموت الناس وهي أحياء . وهل هكذا تكون دموعنا على الذين يموتون وهم أحياء . أشد حرقة ، وأشد مرارة ، وأشد لوعة . . وأشد أيضا نارا . من تلك الدموع التي نشيع بها الذين يودعون الحياة . الذين يموتون موتا حقيقيا .

العمر

الفصل التاسع عشر

كان لابد لشيء ما أن يحدث .
هذا ما كان يؤكده بينه وبين
نفسه أكثر من واحد في الزقاق
وفي الحارة ويؤكدده أيضا حسبو
بينه وبين نفسه كلما رأى
المعلمة فرحة مرحلة تتيه فتنة واشراقا . وتتضوع شبابا
وجمالا ، كما تتضوع الزهرة الليانة وترسل أريجها العبق في
الحماائل . . ويؤكدده أيضا بينه وبين نفسه كلما رأى الشاب
يرتدى حلة أنيقة في النهار وأخرى أكثر أناقة في الليل .
ورآه يروح ويجيء في الزقاق كما يروح ويجيء الطاووس
مزهوا بوسامته فخورا بالألوان المتعددة البراقة التي حياه بها
الله . . . ويؤكدده أيضا بينه وبين نفسه كلما فرغت الزجاجة
وراح مترنحا يجر ساقيه جرا في الظلام ، وهو يهبط سلالم
السبيل في طريقه الى كريكوا ليأتي بزجاجة أخرى من الحمر .
وتؤكدده كذلك المعلمة شفاعات نفسها ، وتكاد تؤمن به
كلما استشعرت النعيم الذي تعيش فيه . وأحسست الهناء الذي
يفيض عليها . وأظلمتها شجرة اللثة التي تتفيا ظلها . كانت
تؤكدده دائما وتؤمن به كلما أغرقتها لحظات هذه اللثة .
كانت تحس احساسا غريبا . كلما نهلت من هذا السلسيل
الذي يفرق الجسد ويفيض على القلب وتنتشى له الروح .
أحسست انها أشبه بمتسول كان يطمع في قرش . فإذا بك
تصدق عليه بالآلاف الجنيهات . حقيقة أن هذه الصدقة أصبحت
ملكا له ، وحقيقة أنه ينعم بها ويعيش في خيرها . ولكن هل
حقيقة أن متصدقا يتصدق بكل هذا النعيم . كان هذا هو
احساسها ، وكان هذا هو الذي يسبب لها القلق أيضا ويجعلها
تؤكد بينها وبين نفسها أن شيئا ما لابد أن يحدث .
ولكن ما هو هذا الشيء . ان أحدا من هؤلاء جميعا كان
لا يعرفه . لا الأستاذ حسبو ، ولا المعلمة شفاعات ، ولا امام
أفندي أو الأستاذ امام كما كان ينادي ، ولا حتى الست صبرية
أو ابنتها ، لأن واحدا من هؤلاء جميعا ولا حتى الشاب نفسه
كان ليظن أن يقدر أن مجرد زيارة الست صبرية للشباب في
المعهد سوف يترتب عليها هذه الأحداث الجسام . فقد حدث أن
طالبا خبيثا كان على صلة بامام ومعه في فصل واحد ، ويعرف
عنه كل شيء . كان هذا الطالب يجلس في مكانه في الفصل ،

فحانت منه نظرة عابرة الى النافذة المطلّة على الفناء ، فرأى
الست صبرية وهى تتحدث الى الشاب فظنها تلك - المرأة -
التي تعيش فى حياصة الشاب . فأشار الى الطلاب جميعا
وعندما عاد امام مختالا كالطاووس يقطع فناء المدرسة يتيه
عجبا بالوان ثيابه انفجر الطلاب فى قلب الفصل يضحكون
ضحكات عالية .

وما أن قال الطالب هذا ، وفرغ من نكتته ، حتى ضحك
الفصل جميعا بالضحك المدوى والقهقهة العالية ، حتى الاستاذ
واحد فقط هو الذى لم يضحك . هذا هو امام الذى ظل يتصبب
عرقا وخزيا فى مكانه لا يتحرك . الى أن انتهت الحصة وانتهى
الدرس . واليوم أيضا ، وراح يسير فى الطريق ساهما واجما
مطاطىء الرأس ينظر الى الارض التى يسير عليها وكأنه يبحث
عن شيء عند قدميه .

وظل يسير مغمض العين لا يفتحها الا على اضطراب شديد ،
فكلما سمع أحدا يضحك فى الطريق ، يظن أنه يضحك منه
ويسخر به كما ضحك الطلبة وسخروا هذا اليوم . وكما
ضحك الاستاذ أيضا حتى كاد يستلقى هو الآخر . ولكن لماذا
كانوا يضحكون جميعا هكذا ؟ أ لانهم جميعا كانوا يعرفون ؟
إذن هم جميعا يعرفون أن هناك امرأة فى حياته . . امرأة
تنفق عليه . وأن هذه الثياب الانيقة التى يرتديها ، وهذه
الحياة الرغدة التى يعيشها ، انما هى من صنع امرأة - امرأة . .
ب . وأغمض عينيه وثقلت قدمه على الارض حتى غدا لا يستطيع
أن ينقلها الا بجهد . . . وهل الطلاب والاساتذة هم الذين
يعرفون ؟؟ والحارة . . والزقاق . . ونظرات النسوة التى
كانت توجه اليه . وأطفال الزقاق الذين كانوا يتفرجون عليه
عندما انقلب أفنديا . وكانوا ينادونه أحيانا بيا « خواجه »
والاستاذ حسبو الذى كلما رآه مقبلا ، أو مدبرا . أغمض
عينه عنه وأخرج الزجاجة من جيبه وأفرغ فى جوفه جرعات .
ماذا يقول عنه هؤلاء جميعا . بل وماذا قالت عنه الست
صبرية عندما التقى بها هذا اللقاء العابر القاتر ورآته هكذا
كالطاووس يختال مصفف الشعر مزركش الثياب التى اختلفت
ألوانها . ماذا قالت عنه . وماذا قالت لسلوى عنه وسلوى .
سلوى .

وأغمض عينيه . وظل يسير الى أن بلغ الزقاق . وحانت
منه التفاتة وهو يدلف الى الدهليز فرأى بهلول وهو يدور فى
السيرجة مغمض العينين يجر خلفه ذلك الحجر الثقيل الضخم
وكانه يجر أثقال الحياة ومتاعب الدنيا . وراح يتأمل طويلا .
ولا يدرى الشاب لماذا كانت هذه الوقفة الطويلة ، وهذا

التأمل الطويل أيضا • ان هذا - الحمار - يدور هكذا ليل نهار في هذه الغرفة المسماة بالسرجة • وهو مغضض العينين لكي لا يرى هذا الثقل الذي يجره لانه ان رآه ، ان رأى هذا الحجر الضخم فسوف لا يجره وسوف يمتنع عن الدوران • ولا بد ان حيرا غيره رأت هذا الحجر الضخم فامتنعت عن جره • والا لما اخترع هذا الغماء الذي يوضع على العينين فيجعل صاحبه يظن أنه يسير في طريق سهل معبدة كما تسير بقية الحمر • ولعله من هذا الاختراع الذي روضت به الحيل والبغال والحمر • اخترعت تلك الاغطية التي توضع على عيون بعض الناس لكي لا يروا تلك الاثقال التي يجرونها خلفهم ، والا كانوا امتنعوا هم أيضا كما امتنعت البغال والحمر • ولكن هل يقدر هذا الحمار على أن يقضي العمر هكذا يجر هذا الحجر الثقيل • وحانت منه التفاتة الى ركن من أركان السرجة فرأى كمية وافرة من شعير الحنطة والفول والكسب أعدت لطعام الحمار • انهم يطعمونه بكثرة ، ويفدقون عليه كل هذه الحيرات لكي تكون له القدرة على الدوران • اذن هو يطعم ويشرب ، ويعنى به لا لشيء الا لكي تكون له المقدرة على أن يجرح خلفه هذا الحجر الكبير •

ومد الشاب يده وفتح باب غرفته فطالعت على الطاولة الكبيرة أشياء فوقها غطاء أبيض نظيف ، فمد يده وكشف عنها الغطاء فإذا بها عدة ألوان متباينة من الطعام الشهى أعدته له شفاعات التي اضطرت للخروج قبل أن يجيء • ونظر الشاب الى ألوان الطعام المتعددة ، وتأمل أوراك الدجاج وشرائح اللحم ، وراح يتفرس في هذا كله ويتأمله • وكلما نقل عينه من صنف الى صنف ، الى صنف أخرى وراح يتفرس فيه ويتأمله • ثم بعد أن أسوعبه جيذا تمتم وهو يدير وجهه بعيدا عنه :

- تماما • نفس الشيء • • الشعير • • والحنطة • • والفول • • والكسب • •

وجلس الشاب على المقعد - بين السرير والمائدة - جلس صامتاً واضعاً يديه على فخذه دون أن ينبس أو حتى يتنفس ، أشياء ما يكون بالة صماء • وجلس كذلك طويلا جدا الى أن سمع نقرا على الباب • فأعترته رجفة ، هزت كدانه كله ، كذلك الرجفة التي هزت كيانه ، عندما دوى ضحك الطلبة في الفصل وقبل أن ينطق ، أو يقول شيئا • رأى أمامه الاستاذ حسبو يتمايل بزجاجتين في يده ، أحدهما فارغة • وهو يضحك ضحكا متصلا • وقد وضع طربوشه فوق أرنبة أنفه التي برزت عظمتهما ، كما تبرز قطعة الحديد الصدئة من الارض •

وترك صديقرته مفتوحة على قميصه البالي الممزق • وعظام صدره البارزة منه • ووقف أمامه أشبه ما يكون بنسخ في سبرك • يريد أن يلعب شيئا يضحك به الناس • ونظر إليه الشاب ، ونهض ماذا يده إليه ليصافحه ، ولكن حسبو لم يلتفت إليه ، ولم يصافحه وإنما نظر الى المائدة الحافلة بالطعام الشهى وهو يضحك ويقول مغرقا في الضحك :

كل • • لماذا لا تأكل •

فصمت الشاب ولم يجب • فصاح حسبو ضاحكا وهو يمد يده الى صدر حمامة محشوة • ويشير الى الزجاجات التي في يده :

كما أن هذا (الغاز الوسخ) لا غناء في عنه لكى أنقل قدمي • فذلك هذا الحمام ، لا غناء لك عنه لكى تستدرك دروسك جيدا •

فاطرق الشاب مغمض العينين وكأنه يغمضهما على نار تتلظى وظل كذلك الى أن قال حسبو ضاحكا في ابتهاج وهو يجلس الى الحائط •

أعرف أنتى استضفتك يوما على نصف رطل من السمك المقلو • ولكنى لم أعرف بأنك هكذا سريعا ستردها لى حماما ، ولحما طازجا له هذه الرائحة الزكية •

فلم يجب الشاب أيضا وظل فى اطرافته مغمض العينين ، الى أن قال حسبو وهو يأكل :

منذ أيام ، وأسابيع • لم أرك الا أمس • • فأين كنت ؟ فاضطرب الشاب وارتبك ارتباكاً شديدا • وقال وهو يرفع اليه طرفه المخضل :

المدرسة • والدروس • والذاكرة •

فقال حسبو بعد أن ابتلع شيئا كان فى فمه وهو يضحك :

أعرف أنها أشياء متعبة • متعبة جدا • • أنا أيضا ذقت الامرين من هذه الذاكرة :

فادرك الشاب ما تنطوى عليه عباراته من تهكم لاذع وقال : وغير ذلك • فقد اشتقت الى أمى ، فذهبت لزيارتها فى القرية •

فقال حسبو وهو يحشو ثغره بشئ • :

وكيف صحتها •

بخير • •

لعلها شفيت من المرض الذى حدثتني عنه •

الحمد لله •

فضحك حسبو مرة أخرى وقال :

— كيف حال القرية ومن فيها •

— كلهم بخير • الحمد لله •

وكان حسبو قد فرغ من طعامه • ومسح أصابعه بورقة
كانت أمامه • ثم قال وهو ينظف تلك الاصابع في أطراف
ثيابه الرثة • ويخرج من بين ثنأيا هذه الثياب • رسالة ناو لها
له •

— هذه رسالة من أمك اليك • تقول لك فيها أنها تشرف
على الموت ، وأنها أرسلت اليك عدة رسائل فلم ترد عليها
بواحدة •

فارتعشت يده وجحظت عيناه وهو يتناول منه الرسالة
وما أن قراها حتى انكفا على حافة السرير الذي يجلس بجانبه
وانفجر باكيا • وراح حسبو ينظر اليه وهو يبكي فيضحك
حيناً ويبتسم حيناً آخر ، وكلما أمعن الشاب في بكائه ونحيبه •
أمعن حسبو في ضحكة وابتسامة • وظل كذلك الى أن قال له
وهو يفرغ شيناً من الزجاج في جوفه :

— لاتبك ، نفس الشيء الذي الهاك عن أمك ، هو نفسه
الذي ألهانني عن أولادي •

فعددت الدهشة لسان الشاب ، وهو ينظر اليه ويقول :

— ألك أولاد ؟

فاستلقى الأستاذ حسبو ضاحكا • وظل يضحك بصوت
عال ، ولما فرغ من ضحكته وأراد أن يقول شيناً ، أغرورقت
عيناه فجأة وانفطرت منها الدموع بغزارة وسالت على وجهه
المغضن ولحيته المغبرة • وكانت أول مرة يرى فيها الشاب
الأستاذ حسبو يبكي ، فانتقل الى جواره • وقال له وكأنه
لا يصدق ما يرى :

— أتبكي •

فمسح الأستاذ حسبو على شفتيه المبللتين ونظر الى الشاب
بعميق المنفعستين في الدم وقال :

— اننى أشفق عليك يا بني •

فاطرق الشاب الى الأرض وهو يتمتم بصوت خفيض :

— أعرف • أعرف كل ما تريد أن تقول •

— لا • لا • أنت لا تعرف شيناً •

فاشاح الشاب عنه مزورا ، وأدار له كتفه وهو يقول وينظر
الى الأرض :

— قلت لك أعرف أكثر مما ستقول •

فابتسم حسبو وهو يخرج شيناً من جيبه ويريه للشاب .

وهو يربت على كتفه في خنان كحنان الاب تماما :

— أتعرف صاحب هذه الصورة .

فتأمل الشاب صورة جميلة لرجل وقور وسيم مكتبل
الرجولة يزين صدره وشاح أحمر يتوسطه هلال ذهبي وثلاث
نجوم لامعة . تماما كذلك الوشاح الذي يزين صدر القاضي
وهو جالس في كرسى القضاة . تأمل الشاب الصورة طويلا .
ثم قال وهو مازال ينظر اليها :

— صورة من هذه ؟

— ألم أقل لك أنك لا تعرف شيئا .

ثم نظر حسبو الى الصورة وابتسم وهو يتناول الزجاجاة
ويفرغ منها شيئا في جوفه ، ويقول :

— هل لو قلت لك أنها صورتي ستصدق ؟

ففغر الشاب فاه وقال فيما يشبه الدهول :

— صورتك أنت .

فقال حسبو وهو يضحك ويعيد الصورة الى جيبه :

— وغدا أيضا ستري الناس صورتك فلا تصدق .

— أكنت قاضيا ؟

— كاتب أول محكمة

— وما الذي حدث ؟

— نفس الذي حدث لك .. امرأة .

— امرأة !

— امرأة لا نظير لها بين النساء .

— من هي ؟

— كانت لها قضية ، وكانت تتردد على في المحكمة ، فحدث

أن انتهت قضيتها ، وبدأت قضيتي أنا .

— أي قضية ؟

— قضية الحب .

— أحببتها !

— وما زلت .

فقال الشاب وهو ما زال ينظر اليه فاغرا فاه :

— قل .. كيف حدث هذا .

— نفس الذي يحدث في قضايا النساء جميعا .

— أحيلت الاوراق الى المفتي . فاعدت أنا وبرئت هي .

ونظر الى حسبو . فلم يدهش وانما أغمض عينيه حينما فقد

أحسن ان تلك الضحكات المدوية من حوله في الفصل تغرس

في قلبه . وظل كذلك الى أن استعاد قواه وفتح عينيه وتذكر

الحديث فقال :

— وما زالت هي تعيش .

العادة • وأول المطر قطرة كما يقولون • استلقت من كل
الناس حتى من عم أحمد فراش المحكمة • حتى من القاضي •
كل واحد كنت أرى له رواية تختلف عن الأخرى • مسرة
زوجتي في المستشفى • • ومسرة ابني مريض • • وأخرى
مصاريف المدارس • ومع ذلك لم أشف • وعجزت عن الاثنين
• • عجزت عن الشفاء ، وعجزت عن سداد الدين • وكان
لا يد • •

وزم على شفتيه فجأة وأغمض عينيه سريعا كمن يستشعر
الما • • وظل لحظات وكأنه يتوجع الى أن تمت بصوته الذي يشبه
الانين :

— كان لابد أن أمد يدي الى شيء آخر •
فمددتها الى نفسي هذه المرة • • الى حياتي • • الى مستقبل
• • مددتها الى الحزنة • • زورت اختاما • • وزورت شيكات •
ورسوم قضايا • ومرتبات موظفين • ١٥ ألف جنيه صرفتها
على هذا الداء الحبيث • هذا السرطان الذي في الدم •
وكان الشاب قد استعاد بعض قواه • • فقال له :

— بتقول كم ؟

— ١٥ ألف جنيه •

— وبعد •

— ١٥ سنة سجن •

فاضطربت أنفاس الشاب وهو ينظر اليه ذاهلاً :

— انت سجن ١٥ سنة •

— من يناير سنة ١٩٠٧ الى يناير ١٩٢٢ •

— وبيتك • وزوجتك • وأولادك •

— كانوا أطفالا • لا يزيد عمر كبيرهم عن أربع سنوات • •

فلما كبروا ، وسألوا عن أبيهم • • قالت لهم أمهم أنه مات •

وحسنا فعلت • وقبل أن أخرج بسنتين ماتت هي • • ولما

خرجت وعرفت أنهم كبروا • وفيهم من تزوج • وأنهم سعداء

• • بعدت عنهم • كان لابد لي أن أفعل ذلك • كنت لا أستطيع

أن أخرج عليهم من السجن • وعصر المعجزات انتهى فلا أستطيع

أن أخرج عليهم من القبر •

— وظل تعرفهم الآن •

• وهل تجهل العين نورها •

• وكيف تراهم •

• عرفت أنهم في كل عيد يذهبون الى - القرافة - • ويقراون
الفاتحة على روح أبيهم • فأذهب أنا الى هناك واقف من بعيتد
انظر اليهم واقرا معهم الفاتحة على روحه •

قال ذلك وهو يضع يده على كتف الشاب مبتسما يربت
عليها وهو يقول ضاحكا :

• ألم أقل لك بأنه مات •

فنظر اليه الشاب طويلا • ثم قال دون أن يدرك شيئا :

• وهل ما زلت تحبها •

• لاني ما زلت مريضا •

فتأثر الشاب الى حد كبير • وقال وهو ينظر اليه :

• وهل ما زلت تراها •

• كلما رأيته •

فأندھش الشاب وقال :

• كلما رأيته أنا ! ••

• أقصد كلما رأيت شبابك الفتى • وحيويتك الجارفة •

وزيك الوسيم • أنسيته أنني قلت لك كيف يخلق الرجل
بشباب واحد • والمرأة بشبابين ؟

فقال الشاب :

• تقصد أنها عرفت رجلا غيرك •

فقال حسبو ضاحكا وهو يمسح على شفتيه :

• وغدا • شفاعات ستعرف رجلا غيرك •

• عم حسبو •

نطقها الشاب في ذعر لاحد له •• وفجأة انفجر باكيا •
فنظر اليه حسبو وهو منكفي على الحشية ، وتركه حينما يبكي
ويولول كطفل • ثم اقترب منه • وخلص من بين ذراعيه
وجهه المبلل بالدمع ، ونظر اليه وقال في حنان جم •• وإشفاق
كبير :

أتتوجع من شيء •

• لا •• لا ••

• هل أصابك المرض الذي أصابني ••

فانتفضى الشاب مرتعشا وهو يقول :

- لا .. لا ..

- هل أنت تعبها ؟

نعم .. نعم .. تعبها .. - أكرهها .. أكرهها ..
محبك .. من محظوظ .. وأما .. ماذا .. تنظر ..
- لا أعرف ماذا أعمل .. قل لي .. أنت ..
تفصير الرجل في هذا ..

- اهرب .. أنتج بنفسك .. قبل أن تصبح حسبو آخر ..
أنظر .. أنظر الى هذا المسخ الذي أمامك .. هذا الحشيد الهزيل
وهذا الوجه الذي شوجه الزمن .. أنظر الى حلم الشاب الماتية
.. هذه الحرق الممزقة هذا الحذاء التي اختلقت الوائيه .. أنظر ..
.. أنظر .. أيضا ..

ومد أطرافه الحشيشة المرقع المرقع الذي يتردده لمرقه في
عنف وهو يصرخ :

- أنظر الى هذا الجسد الذي مات .. هذه العظام التي برزت
أتريد أن تكون كذلك .. أتريد أن تصفح في الليل ويصق على
وجهك في النهار .. أتريد أن تبحت عن اللغة فلا تجد لها
تجتمع أرجل الدواب .. أتريد أن تكون خادما للكل ..

فصرخ الشاب : صرأخ من ترقق جسده البسيط التزم نهال
عليه ..

- لا .. لا أريد أن أكون كذلك .. لا أريد أن أكون
كذلك ..

- اذن اهرب .. أنتج بنفسك ..

- واين اذهب .. عاذ بك .. بعثت بالدفن .. اذهب ..

- الى الشارع .. الى الرصيف .. تسول في الطرقات .. مد

يدك للسؤال .. القمصان تحت عجلات الترام .. ذلك

خبر من المضي الذي ينتظر ..

فابتلع الشاب دموعه وهو يقول :

فأقبل ذلك .. أجل سأفعل ذلك .. وأقبل الى الحظة ..

جاءت ووجدتك فلن تتركك فقلت من يدها ..

ثم ابتلع حسبو أنفاسه وهو ينهض من مكانه .. ويستطرد :

الفصل العشرون

فى مسجد سيدنا الحسين ، وفى ركن قصى من أركان المسجد الكبير جلس ثلاثة عند القبلة ، وبجوار المنبر يتحدثون حديثا هاما • كان أحدهم جالسا القرفصاء أمام شيخ عجوز تغطى رأسه عمامة خضراء كبيرة ، وتعبث أنامله من حين الى آخر بحبات عدة مسابح طويلة ملتفة حول صدره كالأوسمة والنياشين • وجلس الثانى بجواره يصفى الى الحديث بانتباه وكلما اضطرب الذى يتحدث أو تقطع حديثه أو تلعثم وهو يريد أن يقص أشياء يمنعه حياؤه أن يذكرها ، نظر اليه الثانى نظرات مشجعة وهو يقول له :

- قل •• قل لسيدنا الشيخ كل شيء • لقد جئت بك اليه لعله يكون شفيعك عند الله •

فيواصل الشاب حديثه المضطرب المتقطع الى أن انتهى من الحديث وقال كل شيء • فنظر اليه الشيخ وقال وهو يتأمل وجهه الشاب وعينيه المحمرتين :

- المهم فى هذا كله •• هل تركت أيضا مع ما تركت من أشياء غالية • دروسك أم لا ؟

فقال الشاب وهو يتميز غيظا :

- ان لم تتخل عنى عناية الله ، فانى أقول لا •

فقال الشيخ :

- اذن اذهب الى فتاتك وانت مطمئن ، فهى لن يعينها سوى مستقبلك •

فقال الشاب :

- وهل ستحسن لقائى اذا ذهبت اليها •

فقال الشيخ :

- من رحمة الله يا بنى ان القلوب الطاهرة تلتصق بها

الرحمة وتنطبع عليها المغفرة ، كما يلتصق القلب بالجوانح ويصبح جزءا منها • وتصبح هى جزءا منه •

ثم أغمض الشيخ عينيه وتمتم بصوت شجي : « الا من تاب
وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات »
وكان الله غفورا رحيمًا » .

ثم فتح الشيخ عينيه ونظر الى الشاب ، ومد يده الى رأسه
ومسح عليها وهو يقول :

— اذهب اليها .. فليس أحب اليها من عودتك .. وسوف
تجدها ان شاء الله من الصابرين .

فانحنى الشاب على يد الشيخ وقبلها ثلاثا ثم انصرف . وعند
باب المسجد ودعه محمد بن علي أن ينتظره في اللوكانة ، وسوف
يعد له غرفة مناسبة يبيت فيها الى أن يبحث له عن سكن جديد .

وفي الطريق أحس الشاب أنه ألقى عن كاهله عبئا ثقيلا
بعد هذا الحديث القصير الذي دار بينه وبين الشيخ . كما أحس
الشاب وهو يسير في الطريق أنه الآن غيره بعد أن خرج من
المسجد . فقد أحس أنه ألقى هناك بأثامه وأوزاره جميعا .

وأنه الآن كما كان قبل تلك الايام السود يفيض قلبه بالايامن
وأنه الآن أن التقى بسلوى فسوف يلتقى بها خالصة لها مخلصا
لها كما تريد هي له أن يكون ، وانها هي أيضا سوف تلقاه
كذلك خالصة له مخلصا اليه . ولكن هل قلوب الناس جميعا

كما قال الشيخ تلتصق بها الرحمة وتنطبع بالغفران ، أم هي
القلوب التي تحب فقط ؟ هل ستلقاه الست صبرية صافية
القلب مخلصه الود كما كانت وكما يريد لها أن تكون ؟؟ وهل
سيلقاه كذلك الاستاذ الشرنوبى أبو اسماعيل ، أم سينظر اليه
نظرة من صنع الخير في غير أهله .. نظرة من أراد أن يكون
بك حفيا ولك وفيا عليك عطفوا فكنت له منكرا لذلك كله أشد
الانكار ؟ ان سلوى من حقها أن تصفح وتغفر لان بيدها الامر .

.. لانها تحب .. والذي يحب له قلب .. عرف الحسنة وتناسى
السيئة .. اذن هو الى حد كبير جدا يؤمل الخير في سلوى أكثر
منها يؤمله في شخص آخر .. أكثر مما يؤمله في الست
صبرية ، وان كانت أمها .. وفي الاستاذ الشرنوبى ، وان كان
والدها . اذن من الاصوب ان يلتقى بسلوى أولا وقبل كل شيء
.. ولكن كيف يلقاها وماذا سيقول لها ! أيقول لها كل الذي

قاله للشيخ ؟ .. انه لا يستطيع .. يقول لها ماذا ؟ ..

وأخرج منديلا من جيبه وجفف بعض الدموع ومن ثم أخذ

[illegible]

حتى كادت تستلقى وهي تقول :
- الى هذا الحد كنت تخشى أن تلقاني ؟
- لاني الى ما قبل هذه اللحظة كنت لا أعرف حقيقة هذا
القلب ..

- أي قلب .. ؟
- الذي تلتصق به الرحمة والمغفرة كما يلتصق هو بالجوانح
فتصبح جزءا منه .. ويصبح جزءا منها .
- كلام من هذا ؟
- الشيخ المرشدي .
- وددت لو انه كلامك انت .. وددت لو ان ثقتك في
الناس الذين يجنونك ويخلصون لك .. تظل دائما حتى ولو
كانت تلك الشهور التي مضت سنين واحقابا .. حتى ولو كان
فراقا الى الابد ..

ثم اختنق صوت الفتاة واحتبس الدموع في عينيها وهي
تقول وتجفف بعض النقاط التي انسابت خلصة من عينيها :
- شيء أحب أن أقوله لك .. شيء علمتني أنت اياه وهو
أن الذكرى الطيبة يعيش عليها الإنسان طوال العمر . وان
صفحات الخير فيها تظل بيضاء دائما ناصعة البياض .. وكلمة
أظلمت الحياة ، وعمت الدنيا ، كان ذلك البياض هو النور
الذي نهتدي به .. واطن أن ذكرياتنا كلها كانت طيبة
صفحاتها كلها خير .. فمم كان الخوف من اللقاء ؟ ..

فقال الشاب وهو ينظر الى الارض :
- أخافني الخطأ الكبير الذي ارتكبته .
- أحيانا تكون الأخطاء التي نرتكبها بارادتنا .
فقال الشاب . مفاجعا :

- هل انت تعرفين شيئا من الحقيقة ؟
- كل الذي أعرفه ان سعادتى الآن بعددتك لا تعادلها سعادة
فى الدنيا ..

قالت ذلك وقفزت من جواره ، كما يقفز العصفور تنمنا
وقالت وهي تجفف آخر دموعه :

- هيا بنا لنذهب الى البيت ..
- وبأى وجه ألقى أمك .. وماذا أقول لابيك ؟

- أبى على سفر ولو أنه فى البيت الآن لما قلت سعادته
برؤياك عن سعادة أمى بلقائك هذه الليلة ..

قالت ذلك ومدت يدها اليه فأنهضته .. وراح يسير بجوارها
وهو غيّر مصدق لشيء من كل هذه السعادة التى يعيش فيها .
وظل كذلك غير مصدق لشيء لا لنفسه ولا لوجوده ولا لتلك
الفرحة الكبيرة التى فرحتها الست صبرية برؤيته .. ولا لتلك
الحفاوة البالغة التى استقبلته بها .. ولا لتلك الجلسة الممتعة
التي قضاهما مع سلوى وأما .. ولا حتى لتلك الخطاب الطويل
الذى كتبه مع سلوى لأمه يستفسر عن صحتها ويعدها بأنه
سيزورها ، ويقضى معها اجازة الاسبوع القادم : انه لم يذكر
شيئا من هذا كله الا بعد وقت طويل . بعد أن انصرف من
البيت وذهب الى لوكاندة المدينة المنورة والتقى بمحمد بن وجيلى
معه يشربان الشاي ، ويتحدثان ، ويذكران الشيخ المرشدى
وقوله : « ان القلوب الطاهرة تلتصق بها الروحمة » ، كما تلتصق
هى بالجوانح ، فتصبح جزءا منه . ويصبح جزءا منها » .

[illegible]

• • • • •

ويعت في نفسه الكثير من الذكريات • وأحس بشيء يكاد يطبق على أنفاسه وهو في الظلام فرفع الزجاجاة الى ثغره وتجرع منها عدة جرعات • ثم عاد وتجرع غيرها أيضا • حتى كاد يأتي على ما في الزجاجاة كله • وحانت منه التفاته في الظلام فرأى يهلولا في السرجة مغمض العينين يجرح خلفه ذلك الحجر الضخم • • فنظر اليه طويلا • ولا يدري لماذا أراحته رؤية بهلول • ولا لماذا ذكرته بأشياء هامة كان قد نسيها تماما • قابتهج وتمتم في ابتسامة عريضة وهو يسحب نظراته من على بهلول ومن على الغمام الذي على عينيه والحجر الضخم الذي يجرحه خلفه :

— سوف تستريح أيها الشقي •

وقبل أن يتم كانت يده تدق دقات متواصلة على باب غرفة المعلمة • • التي أجابت من الداخل بعد حين :

— من ؟

— حسبو •

— لا أريدك أن تثقل على الآن • أترك كل شيء الى الصباح • فقال ضاحكا من خلف الباب :

— انها أشياء لا صباح لها يا ست •

فقالت صارخة من الداخل في ضيق :

— التي نزع ثيابي •

— انني أريد أن أحدثك عن بهلول •

— انطق • • تكلم • • ماذا تريد أن تقول •

فقال وهو يدق بعينيه المحمرتين في كل أنحاء جسدها الذي انتصب أمامه عاريا الا من قميص رقيق هفاف كاوراق الورود :

— انه حمار فعلا •

— من هو • •

فقال وهو يفرق في الضحك :

— بهلول • • بهلول • •

فقالت مبتسمة تنظر اليه مشفقة اذ ظننته مخمورا لا يفقه :

— وماذا كتبت تظنه اذن • • ؟

— انسان • بنى آدم • له قلب يقدر الجميل • • وعين تزي الجمال • •

— ١٤٦ —

— من تقصد ؟

— هذا الحمار الذى كان يقطن هذه الغرفة .
فقال شاهدة وهي تحس بقلبيها يسقط بين جنبيها :

— امام ؟

— قال لى أن اسمه الحقيقى بهلول . واليوم سقط الغمام
الذى كان على عينيه . ولما رأى ضخامة الحجر الثقيل الذى كان
يجره خلفه . خاف وفر هاربا ولن يعود .

وكما يقف التمثال صامتا صلبا متحجر الوجه . وقفت هي
لحظات تنظر الى حسبو الذى ظنته خيالا . او حلما . ولما رآته
يتحرك ويريد أن يسير تحرك الدم الذى يغلى فى كيانها وصعد
الى وجهها فيما يشبه لسعات النار فجحظت عينها جحوظا مخيفا
وتصلبت أصابع يديها وهي تطبق بها فى قسوة على عنق حسبو
فى عنف . وهي تقول شبه صارخة :

— تكلم . أعد الذى قلتة ثانية .

فقال حسبو . وهو يحاول أن يجد لعنقه متنفسا بين أصابعها
ليضحك :

— قال لى أن اسمه الحقيقى بهلول . واليوم سقط الغمام الذى
كان على عينيه . ولما رأى ضخامة الحجر الثقيل الذى كان يجره
خلفه . خاف وفر هاربا ولن يعود .

فقال وهي تضغط على عنقه بيديها لتكتم أنفاسه :

— وماذا قلت أنت له ؟

— قلت أنتى مثلك ظلمت أجر هذا الحجر سنوات ولكنى لم
أهرب رغم أننى استبدلت بنهاليل كثيرة . وقلت له أيضا .
بيد أنها فجأة دفعته دفعة قوية فسقط مترنحا على الأرض . . .
وتركتة وغادت سريعا الى غرفتها محمولة كاللبوة التى تريد أن
تفترس كل من أمامها . وفتحت غرفة الشاب ونظرت اليها
ذاهلة . ان كل شيء فيها كما هو لم يتغير . لم ينقصها الا هو ،
هو . . .

.. ونظر اليها حسبو وهي خارجة كاللبوة المسفورة وأغرق فى
الضحك . وظل يضحك وهو فى مكانه ملقى على الأرض وظل
يضحك أيضا وهو يلقى بجسده الحائر على فراشه الحشن محتضنا
الزجاجة التى تعود أن يحتضنها اذا أراد أن ينام . وظل يضحك

حيناً - ويحتضن الزجاجة حيناً آخر - ويغمض عينيه مرة
ويفتحهما مرة أخرى دون أن يدرى من أمره شيئاً سعاداً من أمر
الليل الذي يمر به طفلاً - وسفل - كطفلك إلى أن يذهب مقهوراً معلى
دوى حائل يظنه أم - شاعراً بالهم يفرقه الزرع فتخرج في شعثا على
مصراعيه ورأى تلك الأصابع المتصلبة القاسية التي تقبله المخلب
الهرمة المأجولة فتعش به إلى صدوره وشفاعك - تنظر إلى الياقوت على
اللتفتة خال الزلزال على جملته المضيئ المخبئ بعبوه في قطار في
وجهه تلك المصراخات المتقطعة .

رحمہ علی ابن ابی طالب و علی بن ابی طالب و علی بن ابی طالب
سید الطاہرین ائمتہ العظام علیہ السلام

سعدية واثنتان لهما زلف فيضحيان مؤفرق في المضحك ، وكليهما بقليهما
وعيكهما من مضجعهما لثديتي الخوفيهما . وكففت على المصباح بين الغنم فتفت
فيأمله من متعورة الخافق . تنظر بليغتهما اللامعتين إلى ما فتحت بطن
غرفة الشاب ، وأثائها الذي تفتت فيه الملائكة ولا يسهل للفتنة
التي صنعتها له . والاحذية التي بالفتنة الفتنة مدوا ليل الفالية
التي لتويدين على سلسلته الفتنة مع والكرافحت ذات الالموسى بالبراق
الزاهية . والملابس الداخلية التي كلها من الحرير . كل الصفا
أثما به للملح . شيء مع ذلك يهر به بها . وبجنته ثيابها مرة أخرى
وتجلبظت أمهات بليغها . وأوتت خط حوى . فتنشأ أطرافها في هذا
كله . وتلقى به وسط الغرفة للمعزقة . ولانها لم يبق عيشا في
الغرفة ولا حتى لغفتها تظلم بليغها الداخلية . فتفتت في عواقبه .
تناولت المصباح الزجاجي مكانه . لتخرج ما غلبه ليل . فتقول
على رجليها هذا الذي تبيد . ألتفتت في حلقها ليلته ترى أبجمل طلب
المصباح على كل كفة من ظلال مصباحها . فتفتت كسايل من يكتب إلى
يجبر في ليلته فتفتت ليلته في سقسقية فتفتت . فتلقى به في المنار
بيل ليلته . رأيت أن تفتت ليلته . وأثا صورة فتفتت في الترافة
عشرية من رجليها . تفتت في العوض . التي حادها ليل . وطهرتها
: . ففتت في ليلته . والجنود . والانيق . وفتت في الكتب . ففتت
تحملها في يدها . .

في و نظرت في كل المصورة على توتة من و اوتتوتتة بهلطق التوتوتة
 حصة المصير في الى التوتة تلاء في غرتة و تلتتت طولا . و تلتتت
 تلتتت التوتت في التوتت و تلتت تلتت تلتت التوتت تلتتت
 التوتت و تلتت .

الفصل الثانى والعشرون

ان الزوج الذى تخونه زوجته
ويعرف بخيانتها ويطلقها ، يكون
قد أراح ضميره . فلم يعد يهمه
بعد ذلك تقول الناس عليه ،
ولا نظراتهم اليه ، ولا ضحكاتهم .
الحبيشة كلما مر بهم . ما دام هو فى قرارة نفسه قد اطمأن الى
شرفه الذى دافع عنه .
وكذلك تماما كان الشاب عندما عاد الى مدرسته صباح
السبت راضيا كل الرضى مطمئنا كل الاطمئنان . بعد أن فر
هاربا من يد الخطيئة . وطلق حياة الرذيلة طلاقا لا رجعة فيه .
• • • وأجثت جذور الدنس من أساسها فلم يعد لها فى حياتبه
أثر . ان شيئا ما لا يهمه الآن . لا تلك الضحكات الصفراء
التي كانت تأكل جسده أكلا . ولا تلك النظرات الحبيشة التي
كانت تخترم صدره وتنفذ الى القلب فتدميه . بل راح يشفق
على الذين ينظرون اليه ، ويضحكون منه ، ويسخرون به .
لانهم جهلاء لا يعرفون . وظل كذلك الى أن انتهى اليوم وخرج
من المدرسة مع الخارجين . بيد أنه لم يكذ يخطو بعد الباب
خطوة واحدة على الرصيف ، حتى وقف شاخصا فى مكانه
ينظر بعينين زائفتين الى الارض التي تدور به حينا ، وحينا
الى وجوه الطلبة الذين تزامحوه بالضحكات التي يوجهونها
اليه والالفاظ الجارحة التي يصفونه بها • • • وحينا آخر الى
شبهاعات الجالسة امامه فى العربة المنطوية نائمة متنمرة .
مرودة السحنة ، مكفهرة الوجه . ترسبل عيناها الحمراء
الجاحظتان بريقا كأنه اللهب ، وهي تأمره فى ابتسامة صفراء
أن يركب وتعال ضحكات الطلبة مرة أخرى ، وتهافتت
نظراتهم وتزاحمت داخل العربة . ووضعت ألفاظها الجارحة .
وبعد ان كانت تلميحها مستترا غدت تصريحها مكشوفها ومفضوحا
أيضا . وتقدم طالب قوى من الشباب ودفعه فى قوة الى قلب
العربة ، وهو يقول ضاحكا :

- اركب ..
 وحين ركب الشاب وسارت به العربة قالت له :
 - لماذا هربت مني ؟ ..
 -
 - في أي بيت قضيت ليلة الباردة ؟
 -
 - أي امرأة من النساء أخذتك مني .. أهلكنا يكون دخول
 الحمام سهلا كالخروج منه ؟
 -
 - أهلكنا يكون جزائي منك .

لم يكن أمامها أحد حتى يرد عليها أو يجيب على هذه
 الاسئلة . ان الانسان الجالس بجوارها في العربة انما شبه
 لها ، وانه انسان ميت تماما لا حياة ولا روح .. كأنه بجوارها
 جثة هامدة يتفصد منها العرق ويسيل قنوات على الوجه الشاحب
 والعينين الداхلتين . وظل كذلك وقتا طويلا جدا . ظل كذلك
 حتى بلغت بهما العربة نهاية الطريق ، وهبطت منها ، وجرته
 في يدها صاعدة به سلاسل السيل ، وتخترق به الحارة والزقاق
 حتى حسبو الذي عندما رآه اضطرب وسقطت الزجاجة من
 يده ، وكما كانت تجره في الطريق جرته وهي تدخله الغرفة
 وتلقى به على المقعد وتغلق الباب خلفها .

وفتح الشاب عينيه ونظر فيما حوله ، ثم عاد فانغمضهما
 ثانية ، وظل كذلك الى أن تسربت الى أنفه رائحة كريهة تشبه
 العفن ، رائحة سوداء يعرفها جيدا ، لانه عاش فيها زمنا ،
 وأحس بها تنفذ الى أنفه وتتسرب الى خياشيمه وتطبق على
 أنفاسه حتى لتكاد تزحق روحه ، فعاد وفتح عينيه ثانية ونظر
 الى المرأة المتسكرة المتحيرة الواقفة أمامه كالهلول وقال :

- لماذا جئت بي ثانية الى هنا ؟
 - جئت بك الى بيتك ..
 - لم يكن لي بيت ، وانما لي مأخوذة وتركتها .. هربت
 منها ، ولن أرجع اليها أبدا ..
 - اذن ما قاله حسبو كان حقيقة ..
 فقال الشاب وكان قوي الارض جميعا تجمعت على شفتيه :

- أنا البهي يقول لك الحقيقة .
- وما هي الحقيقة ؟

- انني أبغضك .. أكرهك .. أحتقر .. لئلا تروى وجهي
بعد اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها

- هل هذا في يدك ؟ ..

بعضه في يده في ذلك .. ربه ثلاثاً .. لساناً .. قلوباً ..

- حقوقي التي عندك ، مالي الذي خلقته عليك ، لم يصب عوطني
الذي أحبته لك ..

- كل ذلك دفعت ثمنه غالياً ..

- أي ثمن دفعت ؟ ..

- ديني الذي هجرته ، خلقي الذي فقدته ، شرفي الذي
أفترسته ، وحياتي التي أهبطتها ..

فجاءت له في ذلك اليوم رسالة من لسانها .. قلنا ..

لها .. وها هو ذا .. كلهم من أجل أن لا يلقى له لمة تبيته لساناً .. لها ..

بمساعدة أخيه .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

فكانت ضاحكة في نفسها .. في ذلك اليوم .. في ذلك اليوم ..

الفصل الثالث والعشرون

ذهب الشاب بعد خروجه من البيت الى مسجد سيدينا الحسين فصلى المغرب جماعة مع المصلين ثم ذهب الى لوكاندة المدينة المنورة ، وقص على محمد بن كل ما حدث ، واتفق معه على ضرورة نقل متاعه الليلة من بيت هذه المرأة ، فذهب معه محمد بن الى المنزل الجديد الذي استأجر له فيه سكنا ملائما ، واعطى له مفتاحه ، ثم استأجر له عربة لينقل له متاعه كله دفعة واحدة ، وتركه وانصرف الى اللوكاندة ، في حين ركب امام على العربة بجانب الحوذي الى أن بلغا الزقاق ، فأوقفا العربة امام سلالمة السبيل وانصرف امام الى المنزل ، فوجد المعلمة شفاعات واقفة على باب الزقاق مستندة بظهرها الى الحوذة وامامها بعض العمال ، تصدر اليهم أمرها وترتب معهم شئون السرجة ، كان شيئا لم يحدث على الإطلاق ، وعندما رأت امام مقبلا ومعه الحوذي صرخت من معها سريعا ، وظلت هي في مكانها الى أن اقترب امام من الباب وأراد أن يدخل دون أن يحييها أو حتى ينظر اليها ، فابتسمت ضاحكة وهي تمد يدها اليه لتصافحه قائلة :

— اظن الصباح رباح ، وكل تأخيرة وفيها خيرة ..
— فلم يرد عليها وحاول الدخول ، فاعترضته وقالت وهي بازالت تضحك :
— النهار له عيون ، والملائكة تفضب اذا أفلقتها في الليل
— ألم تقل بأنك مسلم وحنبل وتعرف الله جيدا ..
— فغاضته منها هذه السخرية وقال في صوت عال :
— لن يطلع على النهار وأنا في هذا البيت كما قلت لك ..
— فقالت وهي تضحك أيضا :
— أخفض صوتك ، الناس تسمعك ..
— فقال :

— لو استدعي الامر أن أجمع سكان الحارة جميعا لفعلت ..
— أنا لا يهمني الحارة ولا سكانها ، وإنما الذي يهمني أمك المريضة النائمة في غرفتك ..
— أمي ؟؟

نطقها الشاب في دهشة لا حد لها دون أن يصدق أذنيه ، فقالت وهي تكتم فرحة في القلب تريد أن تثبتق نورا من العين :
— جاءوا بها بعد أن خرجت مباشرة محمولة على عربة ،

لأنها لا تقوى حتى على النطق ، ومعها رجل ضريب ، فأكرمتهما
ونظمت لها غرفتك بيدي ٠٠ وأنمتها بنفسى على السرير ٠٠
لا تنس أنها أمتى أنا أيضا ٠٠
فلم يسمع الشاب نهاية الحديث ، لأنه كان قد اندفع الى
الداخل ، وما أن فتح الباب ورأى أمه مسجاة على الفراش
وبجوارها عم نوفل ، حتى ارتقى عليها يبكى ويقبل يديهما
ويبلل شفتيها بدموعه ، ويسألها عما بها ، ولما أحسست به ،
وأفاقت من اغماؤها بعض الشيء ، وجاهدت نفسها حتى فتحت
عينيهما قليلا ، ونظرت الى امام فلم تصدق ، ثم عادت ونظرت
اليه ثانية وهو منكفي على صدرها يبكى ، ولما عرفته جيدا
تمتمت فى صوت لا يختلف كثيرا عن صوت ابنها الباكر
وقالت :

— انت يا امام لبست أفندى فى مصر ٠٠
ثم أغضت عينيهما وعادت الى اغماؤها الطويلة التى لازمتهما
منذ ثلاثة أيام كما قال له عم نوفل ، الذى راح يقص على امام
قصة الشقاء الطويل الذى عاشت فيه الام فى أيامها الأخيرة ،
بسبب داء الكبد الذى كان يلازمها ، والذى حار فى أمره الاسطى
شلبى حلاق الصحة ، ولما استفحل بها الامر وساعت حالها
ذهبت الى حكيم المركز الذى قال بأنها مصابة بخراج فى الكبد
ولا بد من ذهابها الى مصر لاجراء عملية لأنه من غير التيسر
اجراؤها عندنا فى الريف ، فجنث بها الى مستشفى القصر
العينى ، لأننى لم أستطع أن اذهب بها الى مستشفى خاص
لضيق ذات اليد ، ولكنهم هناك أهملونا ، وقالوا لنا عودوا بعد
ثلاثة أيام لعدم وجود أسرة خالية ، وحالتها كما قال حكيم
المركز وعمك الاسطى شلبى ، تستدعى عملية عاجلة والا مائت
فى الحال ، ولما خشيت أن تموت متى فى الطريق ، سألت
أولاد الحلال عن عنوانك فدلونى عليه ، فجنث بها الى هنا ،
وأنا كما ترى رجل ضريب لا حول لى ولا قوة ، وليس فى
استطاعتى أن أفعل أكثر مما فعلت ٠٠

وانهى الشيخ نوفل حديثه ببعض الدموع التى تفجرت من
بين أهداب عينيه المفلتتين ، فقال الشاب وهو يتميز حزنه
والما :

— وتحتاج هذه العملية الى نفقات كثيرة ؟ ٠٠
فقال عم نوفل وهو يمد أصبعه الى إحدى عينيه المفلتتين
ويمسح بعض الدموع :

— يقولون : يا ابنى أشياء خيالية ، يقولون انهم يطلبون

[illegible]

- تجرى لها العملية حالا ..

فأطبق في غيظ علي شفقه السفلى حتى كاد يقطعها وهو يقول يا ربنا الله ربنا الله اعلم به بلشأنه وحده

انهم يطلبون خمسين جنيتها ، خمسين جنيتها : ابلغ لوالده

— ليطلبوا ما يريدون ، خذ كل الذي تريده ، واعطهم كل

الذي يطلبون

سید قنبر علی الشیرازی الیهام فی اغراض الفایض وهو یؤتمن فی غایت العیون وال...

ماذا تقولين؟

— اقول اننى ومالى كله ملك لك ۞ اظنك لا تصدقون ۞

لقد كنت قد ذهبت إلى منزلها في مسدوها وأخبرته فإذا به

فمنهم من يبيعونهم بأغلاهم في حين يظنون أنهم يحسنون الحساب

وہی وہی عشرہ بختیہات احمیٰ لما

لقد كان هذا الكتاب من الكتب التي لا يمكن أن تقرأها إلا مرة واحدة، لأنها تترك في النفس أثراً دائماً، وتكون من الكتب التي لا يمكن أن تقرأها إلا مرة واحدة، لأنها تترك في النفس أثراً دائماً.

فلم يصدق الشباب شيئا مما يرى ولا فيما يسمعون، ولكن

فتوح عنیه چهل روزی نقوداً خفیه ، وانه فی حقیقۃ و لیس

عيسى عليه السلام في الرثاء عليه السلام

المشاهدة : : ليس في البيت العبد ، لتقربنا من الله

معجب أني أني في ذلك عالمي المملوك

مدینه تبار و قبل از این طایفه ای که در یوم بلخ میخروج است اعراس به نام

الماء الحار يطبخ في غليان الماء الساخن في وقتها بالخطات ليرى الماء وتغلي

الحكمة ملقبة بغير اعيانها على ختمها من الفلك يضطر بهن في ريتفشا

بار۔ فقطہ فی اجاء بطریقہ عنہما ، فضل تحقیقہ لہما و جمعہ

أما قلت للمحدثان إنهم لم يثبتوا لك رجوعاً من المذلة إلى المصداق، فإني أجيبهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلْعَذَابِ أَنْ يُدْرِكَ أَهْلَهُ﴾، فإني أتفقك

فصمت حينئذ ما لم تفلت اهرت فلكست اهلها وتظلمت الى

لا أرض :

– انك ولا شك تعرف جيدا العلاقة الترميمية بيننا وكيف

ان هذه العلاقة امتدت الى سكان الحارة والزقاق جميعها، حتى

راحوا يتقولون علينا السوء ، وتعرف جيدا أيضا : أنك لى ،

وانى لك ، وأن لا غناء لاحدنا عن الآخر .. وما دام الامر

كذلك ، فلماذا لا نخرس تلك الألسنة وببذل أن يكون هذا الذي

لَيْمَنَّا سِرًّا وَفِي الظَّلَامِ ، يَكُونُ غَلَابِيَّةً وَفِي الثَّوَرِ ، وَبَدَلُ أَنْ يَكُونَ
أَمَامَنَا فَقَطْ . . . يَكُونُ أَيْضًا أَمَامَ النَّاسِ . . . وَبَدَلُ أَنْ نَقْضِيَ إِلَهُ

نرضيه ، ويكون ذلك سريعا ، أقصد الليلة مثلا ، يا الآن ..

وایک دوسری صورت میں جو کہ ایک ہی طرح کی ہے۔

- 107 -

فلم يفهم الشاب حرفا واحدا من كل هذا القول ، ولذلك
سألها جادا :

- قولى ماذا تريدين .

- أن نتزوج ..

فشبهق الشاب شهقة عالية ، وقال فى ذعر شديد وهو يلقي
بالنقود التى فى يده على الارض ، ويخرج سريعا ، كمن يريد
أن يهرب من هول مخيف :

- أنا أتزوجك أنت ؟! ..

فنظرت اليه وهو يخرج سريعا وابتسمت ، ووقفت فى مكانها
لحظة ، ثم مدت يدها الى النقود المتناثرة على الارض عند قدميها
وجمعتها وابتسمت أيضا ، ولم تعدها الى مكانها فى المندبل
الذى تحتفظ به فى صدرها ، وانما وضعتها على البوريه
وصعدت الى السرير ، وانطرحت بظهرها عليه ، بأسطة ساقيهما
وذراعيهما فى استسلام عجيب ونشوة زائدة ، وهى تنظر
بعينيهما الواسعتين الى سماء الغرفة ، وكأنها تنظر الى سماء
دنيا جديدة .. تقبل عليها ، لقد كانت واثقة من انه سيعود
وظلت كذلك وقتا ، لم يطل كثيرا فى حسابها .. ولم يطل
كثيرا أيضا فى حساب الزمن نفسه ، وإن كان قد طال وبعد
وامتد سنوات فى حساب غيرها من الناس الى أن رأت يدا
مرعشة تفتح عليها الباب ، ورأت الشاب يدخل عليها مطبق
الشفيتين ، ويقف وسط الغرفة مغمض العينين جامد السحنة
متحجر الوجه ، لا يطرף ، ولا يتحرك ، فلم تأبه به ، ولم
تلتفت اليه ، وظلت كما هى مستلقية على ظهرها فوق الفراش
منبسطة الساقين والذراعين فى استسلام عجيب ، الى أن
سمعته يتمتم بصوت خافت جدا يشبه الهمس ..

- قومى ..

- الى أين ؟ ..

- نتزوج ..

الفصل الرابع والعشرون

لم يستطع الشاب أن ينقل أمه الى المستشفى في تلك الليلة كما كان يود ، ولا حتى في صبيحة اليوم الثاني لان مراسيم الزواج لم تتم الا عند الظهر تقريبا ، وذلك بسبب تقييد المأذون عن بيته في هذه الليلة ، وعدم العثور على مأذون آخر بعد منتصف الليل ، ورغم تلك الجهود التي بذلتها المعلمة في تلك الليلة ، ورغم أن قدميها كاد الدم يسيل منها من كثرة سيرها في الطرقات ليلا وتنقلها من حي الى حي تبحث عن المأذون ، والشباب خلفها يتبعها خطوة خطوة ، يسير كما تسير ويضع قدميه مكان ما تضع قدميها ، ويترك الباب الذي تتركه يدها ، دون أن يفتح فمه ، أو تطرف له عين ، أو تتحرك له شفة ، أو يقبول غير ما طلب منه المأذون أن يقول ، وكل الذي قاله من عنده هو انه بعد أن عقد العقد ، وخرج معها من بيت المأذون سألها قائلا :

— لماذا أردت أن يكون مؤخر الصداق مبلغا ضخما هكذا وأثبتت في العقد انه مئتان من الجنيهات بالتكلم ؟ ..
فكانت ضاحكة :

— لكي أسجنك اذا أردت أن تهرب مني يوما ..

فلم يجب بشيء ، ولم يلتفت الى شيء مما قالت ، فقد أنشأته فرحته ، بدخول أمه المستشفى واعداد العدة لاجراء العملية لها كل شيء ، وظل طوال النهار والى أن جاء الليل حركة نشاط دائمة ، يتحدث الى الاطباء ويسدد حساب المستشفى ويدفع أجر العملية مقدما ، ويشترى لها كل ما تحتاج اليه ، الى أن انتهت العملية تقريبا ، وأفاقت أمه بعض الشيء من اغماؤها فتفتحت عينيها وعرفت انها في المستشفى وأن العملية ستجرى لها في الصباح أي بعد ساعات ، فتظرت اليه وابتسمت على كتفه في حنان أزال كل متاعبه ، ثم أغضت عينيها ثانية بيد انها بعد لحظات قصار عادت وفتحتها ثانية ، وسألته وكأنها تريد أن تعلمين :

— امام ، من أين جئت بهذه النقود ؟ ..

فجفل الشاب كما يجفل الجواد وقال شيء ما بكاد يحضر قلبه :

— انها إرادة الله ..

— و .. نعم بالله يا بني ..

- فبم تلمصك على زوج وزوجته فى الظلام ؟ ..
 ففهم كل شيء إلا الذى قالته ^{لها} ^{فوق} ^{أذنه} ^{كلمة} ^{من} ^{زوج}
 وزوجته - كن حاجة وزججات - فقال صاحكلا ^{نزد} ^{عليها} وهو
 ينظر الى الزجاجة التى فى يده ^{من} ^{يد} ^{فألقى} ^{بها}
 - لاننى لا أستطيع النوم ، وهى تافقه ^{بها}
 ثم نظر الى الشاب الذى أدهشه جدا ^{بها} ^{وقال} :-
 - شرفت ياسيد بهلول ..
 فاعتاظت ودفعته فى عنقه ^{بها} ^{فقال} :-
 - من اليوم لا أريد لاحد ما أن يمسي ^{بها} ^{فقال} :-
 - من اليوم لا أريد لاحد ما أن يمسي ^{بها} ^{فقال} :-

أسياح ..
 - زوجك ..

نطقها الرجل وهو فاغر فاه يستمع الى رنين الكلمة على أذنه
 وكأنه يستمع الى حكم يصدر بالاعدام على شخص يعرفه ..
 - ^{بها} ^{فقال} :-
 جميعا ، وهذه قسيمة الزواج بين ^{بها} ^{فقال} :-
 فلم يسمح للرجل ^{بها} ^{فقال} :-
 للشباب وهى تسحب ^{بها} ^{فقال} :-
 الشاب الذى يقطر صفرة ^{بها} ^{فقال} :-
 - ما بك ؟ ..

لماذا حسنت لانا ^{بها} ^{فقال} :-
 فقال وهو يلقي بجسده القاء على المقعد الذى قبالة ^{بها} ^{فقال} :-
 - اكاد لا أتمالك جسدى ..

- مم ؟ ..
 - لم أنم منذ أول أمس ..
 فقالت ، وهى تتناول من على المشجب ^{بها} ^{فقال} :-
 التى كانت قد أعدتها له ..

- قم ، قم ، لا تتردد ^{بها} ^{فقال} :-

- لا ، لا ، لهذا بطك ^{بها} ^{فقال} :-

- تببت فى المستشفى ؟ ..

فقط ^{بها} ^{فقال} :-
 فقالت صاحكة وهى ما زالت تنظر ^{بها} ^{فقال} :-
 - وهل يبيت العريس خارج البيت ليلة ^{بها} ^{فقال} :-
 فتذكر الشاب أنه زوجها ، وقال وهو ينظر الى الباب الذى ^{بها} ^{فقال} :-

سبحر ^{بها} ^{فقال} :-
 - على الرغم منى .. انها أمى ..

فقال وهى ما زالت تضحك وتنظر اليه :

- أهكذا حتى فى ليلة زواجنا • تابى حماتى الا أن تطفئ
شمعتى ••

فقال الشاب محاولا أن يجارها فى الضحك :

- انها مريضة وستكون ليلة زواجنا يوم شفائها ان شاء الله -
ثم حاول أن يخرج فقالت له :

- اجلس قليلا ••

- انها تنتظرنى ••

- تناول عشاءك ثم اذهب اليها ••

- لست جائعا ••

فقالت وهى تقرب المقعد الى المائدة التى فى وسط الغرفة :
وتجلس عليه :

- قلت لك تناول عشاءك ثم اذهب اليها ••

فقال وهو ينظر الى الطعام الذى اكتظت به المائدة على غير
العادة • بعد أن رفعت القطاء عنه :

- ما هذا كله •• انه يكفى لعدد كبير من الناس ••

فقالت وهى تضع فى الطبق الذى أمامه • صدر الديك
الرومى الذى كانت تزين به المائدة :

- عيبك انك تنسى دائما •

- أنسى ماذا ••

- ان هذه ليلة دخلتنا ••

فقال وهو ينهض :

•• سأتخذ قطعة من اللحم وكسرة من الخبز •• أكلهما فى
الطريق ••

قلت لك تناول عشاءك ثم اذهب الى من تريد ••

- هل أنا ذاهب الى عشيقته •• قلت لك انها امى ••

- وأنا زوجتك ••

فاضطرب فى خوفه • وأراد أن يقول لها شيئا • ولكنها
شدته من ثيابه مرة أخرى وأجلسته وهى تقول غاضبة بصوت
عالى :

- لن تخرج الا اذا أكلت

فجلس فى حق ومد يده الى الطعام الذى تمثله له نسما

ناقما • وتناول قطعة من اللحم وراح يلوكلها بين شسديقه • •
ونظراته الى الارض لم ترتفع عنها • • بيد أنه لم يكند يبتلع
اللحمة الاولى حتى استشعرت أحاسيسه لذة الطعام • وسر هذا
المعلمة شفاعات الجلاسة أمامه • • تترقبه خلنسة • • وازداد
سرورها عندما رأت أسارير وجهه تهلل شسيتها فشيئا •
وقسمات وجهه التي كان قد طمسها الغزن كما تطمس الامطار
والاوحال الاشياء النظيفة • • تعود الى ما كانت عليه من الجمال
والاشراق والبهجة • • وازداد هذا السرور وتضاعف حتى كاد
يلغ ذروته عندما تفتحت عيون الشاب واستطاعت أن تبصر
المرئيات وتميز بينها • • وتعرف عليها • • وترى جيدا ثوبها
الجديد الذي ترتديه والذي انشق من أمام الى ما بعد الثديين •
والذي انشق أيضا من خلف حتى كشف عن الظهر كله ، وكاد
ينزل الى ما فوق الردين • • والذي سألها عنه قائلا وهو ينظر
اليه ويتفحصه في امتعاض :

• • لم أر هذا الثوب قبل هذه الليلة • •

ثم أطبق شفوية على قطعة من اللحم كانت في فمه • • كما
يطبق الانسان عينيه على منظر كزيه • • ثم حاول أن يقول
شيئا فقال غيره :

• • انه ثوب جميل على أى حال • •

فقال ناهضة من على المائدة وقد اكتملت فرحتها وانجبت
الى البوريه :
• • أعجبك • •

فقال وهو يشيح بوجهه عن ظهرها الذي تعرى أمامه :

• • فقط كنت أود لو ترتدين ثوبا يحجب هذا العرى • •

فقال وظهرها ما زال اليه :

• • يحجبه عن من ؟ • •

• • عن العين ! • •

• • حتى لو كانت عين زوجي • •

ثم استدارت اليه حاملة زجاجة من النبيذ تفرغ منها في
كاسين وتقدم له احداها :

• • ماهذا ؟ • •

• • عصير العنب • •

فقال في ذعر :

— لا • لا • لن أشرب •

— ولكنك كنت تشرب •

— اننى أصلى منذ ثلاثة أيام •

فقالت في غضب وصوتها يتخذ صفة الجدد :

— قلت لك انه عصير العنب •

— انه مسكر • وكل مسكر حرام • وأنا أصلى كما قلت لك •

— وأريدك أن تصلى كل يوم وأنا أيضا سأصلى معك كل يوم •

• ولكنى لا أريدك أن تموت •

— أموت !

نطقها الشاب في خوف فلم تلتفت الى قوله وانما استطردت

فى نفس الغضب :

— أنظر الى عينيك الغائرتين •• أنظر الى وجهك المصفر ••

أنظر الى سحنتك المغبرة التى تشبه سحنة الاموات •• أنظر

الى رقبتك وقد نفرت عليها عروقك الزرقاء • ففدت كالشعابين

التي تسبح على ماسورة فى الليل •• انك •• انك تموت فعلا •

فقال الشاب مضطربا جدا • وهو ينظر الى الكأس التى فى

يدها :

— لكن ما علاقة هذا بالخمير ••

— لپست هذه خمرا وانما هى دواء • لو أردت أن أسقيك

خمرا كما تظن لجئت لك بالخمير التى تحبها • بالكونياك الذى

كنت تشرب منه حتى تفقد وعيك •

— و •• و •• ولكن •

— ولكن اشرب •• وقم اذهب الى أمك التى تنتظرك فى

المستشفى •

فتناول الكأس من يدها سريعا وأفرغها فى جوفه مره واحده

ووقف ليخرج ، بيد أنها اعترضته وهى تملأ له الكأس الثانية :

— اشرب هذه أيضا •

— أيضا ••

— اشرب ••

— •••••

— وأيضا هذه ••

— ١٦٤ —

- ان راسى تدور ..

- اشرب ..

-

- هذه وكفى ..

- أيضا ؟

- اشرب . قلت لك .

ولما شرب الكاس الرابعة . اجلسته وجلست بجواره وهي

تقول :

- وما رأيك لو ذهبت معك الى المستشفى ؟

فقال في دهشة :

- تذهبين معى الى المستشفى ؟

- اليست امنى أيضا هي المريضة هناك ؟

- ولكن أين ستبيتين ؟

- كما ستبيت أنت .

- أنا سأظل ساهرا .

ثم ألقت برأسها على كتفه . وقالت وهي تعبت بأصبعها فى
أذنه التى تغمرها أنفاسها الدافئة :

- لن أدعك تخرج وحدك .

- كما تشائين .

فنقلت اصبعها من أذنه ، وربت على شفتيه وهي تقول :

- لحظة . أرتدى ثيابى .

وتركتـه وذهبت الى الدولاب . وأخرجت بعض الملابس
الداخلية . وثوبا غير الذى ترتديه . وحملت كل هذا على
يدها واتجهت الى البوريه ، وقالت وهي تنظر اليه ضاحكة .
وتمد يدها الى المصباح :

- ساطفىء النور .

- لماذا ؟

- حتى لا ترانى عارية وأنا أرتدى ثيابى .

وأدارت مفتاح المصباح الزجاجى شـمـالا بعض الشيء ،
فانخفض نوره . وخفت ذبالته التى راحت تتهاوت وتتراقص
فى شحوب . أحال كل ما فى الغرفة الى خيالات لا تكاد العين
تميزها . ثم ذهبت الى جانب السرير بجوار الحائط وراحت

تنزع ثيابها • وتقول له كلما رأت ظلال جسدها الذى يتعري
رويدا تمتد على الارض موضحة كل شيء :

— أغمض عينيك •

— اننى لا أرى شيئا •

— بل ترى •

فقال وهو ينظر الى تلك الظلال التى تمتد أمامه موضحة
كل شيء :

— الحقيقة اننى أرى •

— ترى ماذا ؟ •

— أرى اننى فى حاجة الى كأس أخرى •

— لماذا ؟ •

— لاننى أريد أن أنام •

— وأنا أيضا •

وظلا يسبحان فى نوم عميق • حتى أطل عليهما من الدافئة
شيء أبيض ، أما هو فقد تبين فيه وجه الصبح ، وأما هي
فلم تبين شيئا . لأنها كانت لا تزال منسحقة تنن من فرط
ما وهبت طوال الليل •

وفتح الشاب عينيه مرة أخرى وراح يتلفت حوله • دون
أن يصدق شيئا مما يرى • • وفتح عينيه منسرة ثالثة وراح
يلتفت حوله • • حقيقة أنه نهار • • حقيقة أنها شمس • •
وحقيقة أيضا • • أن هذه بقايا طعام • • وهذه بقايا خمر • •
وهذه أيضا • • ملابس نسائية ملقاة ذات اليمين • وذات
الשמال • • وحقيقة أيضا أن هذه • • غرفة • • وهذا سرير
• • وهذه • • امرأة • •

وهب الشاب مذعورا كمن لدغته أفعى • وارتدى ثيابه فى
عجلة لاحد لها • ومن ثم انطلق كالسهم خارجا • بيد أنه
فجأة عند الباب وقف مرتعبا مأخوذا • ينظر بعينيه الجاحظتين
الى شيء رهيب أمامه • • شيء يخاف أن يمسّه ، أن يلمسه ،
ولكنه لا يستطيع أن يخرج بدونه • أنه جاء ليلة الامس من
إجله • أن أمه أرسلته ليحضر لها به • فإذا به • • اذا به • •
ماذا ؟؟ وحفظت عيناه مرة أخرى ، وهو يخرج من حبيبه

منديلا نظيفا يضعه على المصحف الكبير حتى لا تلوّثه يده ..
ومن ثم خرج سريعا . وذهب الى المستشفى ، ولكن بعد الساعة
السابعة ، وهو الموعد المحدد لاجراء العملية .

وراح يصعد درجات السلم فى جنون . وانطلق الى الغرفة
التي فيها أمه كالسهم ، ولكنه وجد الغرفة خالية . ووجدهم
قد نقلوها الى غرفة العمليات . وهو لا يعرف اين تقع غرفة
العمليات فى المستشفى . ورأى احدى التمورجيات تقبل على
الغرفة الواقف على بابها . تحمل أثاثا جديدا ، من أثاث غرفة
المستشفيات . فسألها على الفور :

— أين تقع الغرفة التي تجرى فيها العملية لأمي ؟
فكانت التمورجية ، وهي تدلف الى الغرفة ، لتبدل أثاثها ..
دون أن تقدر على النظر اليه :
— البقية فى حياتك .

الفصل الخامس والعشرون

— ان لم يخنى ذكائى • فانت

الست سلوى •

— وكيف عرفتنى ؟

فقال محمد بن •

— حدثنى عنك امام افندى كثيرا

وارانى صورتك • انه يحبك جدا •

فقال الفتاة وهى تنظر الى الارض فى خجل :

— شكرا وأين هو ؟

— ألم يذهب اليكم ؟

فقال وهى تحاول ما استطاعت أن تحبس دموعها :

— كان عندنا من ثلاثة أيام • وقال انه سيعود فى الصباح •

والى الآن لم يعد • وكنت أسمع يذكرك اسمك • ويردد اسم

لوكاندة المدينة المنورة • فجئت أسألك عنه • خشية أن يكون

الذى أقعده الآن • هو نفس الشيء الذى أقعده ستة أشهر • •

— حقيقة أن أمره غريب • منذ ثلاثة أيام كما تقولين جاءنى

بعد أن انصرف من عندكم • وأعطيته مفتاح المسكن الجديد

الذى استأجرت له هنا بجوار اللوكاندة • واستأجرت له

عربة كارو لينقل عليها متاعه • والى الآن لم أره :

— وأين يقع المنزل الذى يقطنه الآن ؟

فوصفه لها محمد بن وصفا دقيقا • ثم قال وهو يودعها الى

ما بعد اللوكاندة :

— معذرة • ولولا أننى فى اللوكاندة وحدى ولا أستطيع

تركها • لذهبت معك •

— شكرا •

وانصرفت الفتاة تحمل حقيبة كتبها التى خرجت بها من

المدرسة • وذهبت الى ميدان • باب الخلق • وراحت تسأل

عن سلالم السبيل • وزقاق الجنائنية • والسيرجة التى فى

نهايته • ووقفت أمام الخوخة • وشعرت باضطراب وهى تمتد

يدها الى الجنزير الملتف على الخوخة • كما تلتف السلاسل على باب سجن من السجون • بيد انها لم تكده تفعل ، حتى فوجئت بامرأة امامها ، تقف شبه عارية في ثوب قد انشق من امام حتى أسفل الثديين • وانشق من خلف حتى كشف عن الظهر كله وانزلق الى ما فوق الردين • فارتدت نظرات الفتاة عنها سريعا في دهشة زائدة وخجل مريب • وازدادت هذه الدهشة كثيرا عندما سمعت الفتاة هذه المرأة • ترحب بها ترحيبا حارا وكأنها تعرفها :

- أهلا • أهلا • خطوة عزيزة يا حلوة • • اتفضل •

فقالت الفتاة في ارتباك دون أن تقوى على النظر اليها :

- حضرتك تعرفيني ؟

- ومن ينكر القمر • أو يخفى الشمس • أو ينسى الصورة

التي لا توضع الا على القلب ، ولا تحفظ الا في المصحف •

- صورة من ؟؟

- صورة التلميذة المؤدبة الجميلة ، ابنة المدرس • •

- من أنت ؟

فقالت غانجة ، وهي تنظر اليها بنصف عين ، وتضحك ضاغطة على اللبانة التي بين شديقيها ، فتبرز عمق فجوة الغمازة التي على الخد :

- عشيقة • مفرمة • • متيمة • خاصم النوم عيني • وأضني

السهر قلبي • • مثلك تماما وحياتك •

فقالت الفتاة في ذهول لاحت له :

- مثل من تقولين ؟

- مثل التلميذة ابنة المدارس • التي ما زالت بالفيونكة

والجورب الابيض • والخبريلوث أصابعها • وتعشق الشبان •

وتتمرغ في أحضانهم • ولا تخجل من أن تقتحم عليهم بيوتهم

وتسأل عنهم • •

فقالت الفتاة لاهثة الانفاس ، والدموع في عينيها :

- أي بيوت • وأي شبان ؟ اننى اسأل عن امام •

- وأنا أيضا أحدثك عن امام •

فصرخت الفتاة دون أن تصدق :

— أنت تعرفينه •

فأقلت وهي تضحك ضحكة عالية • رنت في فناء الدهليز
•• واخترقت أذن حسبو • النائم في غرفته يحتضن الزجاجاة
ويضحك :

— انه زوجي •• فكيف لا أعرفه •
— زوجك ؟

نطقتها الفتاة مشدودة ، وهي تنظر اليها هذه المرة ، وتتأمل
كل شيء فيها • ولما لم تنطق ثانية • قالت لها شفاعات
ضاحكة :

— مالك تنظرين الى هكذا • الا تصدقين ؟

— أجل • لا أصدق • وانت كاذبة •• كاذبة •
فلم تثر ولم تغضب • وانما استغرقت في الضحك • وهي
تمد يدها الى صدرها العاري • وتخرج شيئاً من بين الشدين •
وتقول :

— اتفضلى • يا حلوة • اقرأى قسيمة الزواج •
ولما طالت نظرة الفتاة • وطال تأملها • وطال أيضاً
وجومها • قالت شفاعات ، وهي تضحك مرة أخرى :
— ان جئت ثانية • فسوف أشتري لك نظارة معظمة •
لكى تريننى جيداً •

ثم عقت • وهي تغلق الحوخة في وجهها وتلف عليها
الجنزير :

— مع ألف سلامة ••• يا حلوة •

الفصل السادس والعشرون

استدارت المعلمة شفاعات الى غرفتها . بعد أن طردت الفتاة . وأغلقت باب الخوخة في وجهها ولفت عليه الجنزير . وراحت تقطع فناء الدهليز تصفى في نشوة زائدة الى صوت البلابل السبع التي تنبعث من القيقاب الصدف . مختلطة بصوت فرقعة اللبانة التي بين شذقيها ، والتي كلما ضغطت عليها برزت واستدارت ولاح عمق الغمازة التي على الحد . . بيد أنها لم تكد تسير بضع خطوات ، وتتجه الى غرفتها ، حتى حانت منها التفاتة عابرة الى السريحة . فرأت بهلول ، واقفا في مكانه لا يتحرك . يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال . . وقد سقط الغماء من على عينيه . فراحت تنادى بأعلى صوتها :
- حسبو . . يازلت يا حسبو . . ياهباب . . يا حسبو .

وكان الاستاذ حسبو في غرفته . مستلقيا على فراشه الحشن بنفس ملبسه . البنطلون الذي لا يعرف له لونا . والصديري (الألاجة) الذي لم يبق فيه غير أزواره الستة الغالية . تغالب الزمن . لتبقى على الاصل القديم . والمجد الدارس . وقد عقد مندبله المحلوي على رأسه الذي وضعه مع نصف ظهره على حافة الوسادة . ووضع على النصف الآخر الذي عليه الصدر ، مؤخرة الزجاجة . لأن مقدمتها كانت في فمه . وكان مخمورا لا يكاد يفقه . ولهذا ترامي اليه صوت المعلمة ، وصراخها الذي ينبعث من الدهليز . ترامي الى أذنه أشبه بهمس لذيد في حلم أبيض جميل . ولهذا لم يرد . وكل الذي فعله أنه رفع الزجاجة الى ثغره . وهو يضحك ، وإفرغ منها عدة جرعات في جوفه وهو يضحك . ثم أعادها وهو يضحك أيضا . ويواصل أغانيه التي تعود أن يغنيها بصوت عال كلما أسرف في الشراب وراح ياتي بكلمة منغمة من هنا . وكلمة مسجوعة من هناك . وشطرة من موال . وشطرة من موال غيره . وظل كذلك الى أن اقتحم عليه باب الغرفة فجأة في عنف . ودخلت منه المعلمة كالهول ، أو كالصاعقة . فلم ينطق . ولم يتحرك . أو تطرف له عين . وما أن رآته في منامته هله مخمورا . والزجاجة على صدره يحتضنها ويضحك حتى انفجر مرجل غضبها . ودوى صوتها في قلب الغرفة صارخا :

- أطرش . . فقدت سمعك . . أصبت بالصمم .
فلم يسمع شيئا مما قالت . ولم يتحرك أيضا من مكانه .

وانما تعلقت نظراته بقميصها الخفيف • الذى انشق من امام
حتى أسفل الثديين • وانشق من خلف حتى كشف عن الظهر •
وانزلق الى ما فوق الردفين • وانسأه هذا كل شيء • الا الزجاجة
التي فى يده • والغناء الذى يغنيه • ولذلك راح ينظر اليها •
وهو يرفع الزجاجة الى ثغره ويشرب • ثم أعادها الى مكانها من
صدره • وهو ينظر الى الوردة الحمراء • التي تدلت مع القرط
الذهبي فوق الكتف العارية • ويردد مواصلا الغناء :

يا رابطة على الصدر وردة فى مكان حساس
فاحتدم غيظها • وهجمت عليه ممسكة بالزجاجة من يده
لتلقى بها فى الارض • • لتحطمها • ولكن أصابعه الحسنة
تكالبت على الزجاجة • وراح يشدها من يدها • فى قوة وخوف
وهو ينظر الى جسدها العارى والوردة الحمراء التي تروح وتجيء
على الكتف العارية • ويقول ضاحكا وهو يشد منها الزجاجة •
- السولار ياست • البنزين يامعلمة • • الغاز الوسخ
ياعروسة الشباب •
فبرقت عينها وهي تصرخ وتشد منه الزجاجة فى قوة
هائلة :

- أعطنى هذه الزجاجة •
- لماذا يا عروسة • • يا زوجة الافندى •
- أحطمها • لن تشرب الخمر بعد اليوم •
- الماكينة تقف • • تتعطل • • الدينامو • • ما يشتغلش • •
حرارته تبرد • • الكهرباء تروح • •
• فضغطت بكل قوتها • وكل ثورتها أيضا تشدها منه • ولما
لم تستطع انتزاعها من بين يديه • تركتها فجأة • لدفعته شدة
الجذب الى الوراء • فسقط على ظهره فوق الارض • والزجاجة
بين يديه • فنظرت اليه وهو مستلق أمامها على الارض • وغلبها
الضحك • وكادت تضحك • لولا أنها قالت • وهي تنظر اليه
وتزم على شفيتها :

- قم اذهب الى بهلول • •
- أى بهلول فيهم • • بهلول الزوج • أم بهلول الحمار ؟
فاحتقن الدم فى وجهها على الفور • واندفعت اليه كالنبوة •
تركله بقدمها فى قلبه وصدره ركلات موجعة وهي تقول فى
غيظ يشبه الجنون :

- قلت لك ألف مرة • لا تذكر اسمه على لسانك • • لقد
أصبح زوجى • زوجى • أفهمت •
- ١٧٢ -

فأراد أن يقول لها شيئا . يقول لها . . كفى عن الضرب . .
يقول لها ضرباتك توجعني . . تميتني . . يقول لها ان كان
ولا بد من الضرب . . فليس بالقباب . . وان كان لابد من
الضرب بالقباب . . فعلى الأقل يكون لغير هذا السبب .
أراد أن يقول لها هذا أو بعضه . ولكنه رأى مرة أخرى
الوردة الحمراء التي تدلت مع القرط الذهبي وخصلة ناعمة من
الشعر الفاحم . ما زالت تروح وتجيء فوق الكتف . فتذكر
أنه كان يغنى . فقال مستطردا يغنى وهو يضحك ، وعينه
عالقة بالوردة لم تتزحزح عنها :

يا رابطة على الصدر وردة في مكان حساس

وكان هذه الكلمات انصبت نارا في أذنيها . فانقضت
عليه في هول هائل . وأنشبت أظافرها في عنقه . فخاف
وارتعد وأزعته رؤية ذلك الوجه الذي لم ير له مثيلا بين
الوجوه ، وأرعبته رؤية تلك الأذرع التي تتلوى أمامه كالثعابين
الضخمة زاحفة الى عنقه لتطبق عليه وروعته رؤية ذلك الرأس
الذي يشبه رأس الافعى الزرقاء تدنو منه لتعضه بأنيابها
الحادة . فأغمض عينيه . وهو يرفع ذراعه سريعا الى أعلى . .
وظل يرفعها . . ويرفعها . . ويرفعها ثم هوى بها فجأة على
ذلك الرأس فترنحت الافعى على الفور . وارتكنت على الحائط
قتلوى خائفة أن تسقط . ولكنه . . فاجأها من الخلف بضربة
أخرى أسقطتها أمامه على الأرض . ولما نظر الى يده . ووجد
أن الزجاجة مازالت فيها . وأنها لم تحطم بعد . وانما الذي
تحطم هو رأس الافعى . ابتهج ضاحكا وهو يحتضن الزجاجة
ويخرج . بيد أنه عند الباب . أحس بأن ذيل الافعى ما زال
يتحرك . فرجع اليها في هدوء وراحته بال كان لا يعرف أن
لهما وجودا في قلوب الناس . وجلس أمام رأسها في نفس
الهدوء . . وأغمض عينيه . . ومن ثم راح وينفخ الهدوء
يرفع ذراعه الى أعلى . . ويهوى بها على الرأس . . ويرفعها الى
أعلى ويهوى بها على الرأس . . وظل يرفعها الى أعلى ويهوى بها
على الرأس . . ولما فتح عينيه بعد حين . . ولم ير أمامه غير
كتفين اثنتين فقط لاشيء بينهما . . ازداد هدوءه . . وانفجرت

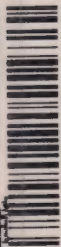
أساريه • ونهض مطمئنا • • بيد أنه وعو ينهض رأى شيئا
فوقف ينظر اليه ، ويتأمله جيدا ، ولما عرفه ، مد يده اليه
وأخرجه من وسط بركة من الدماء • كانت أمامه • ومن ثم
انصرف به من الغرفة واخترق به الدهليز • وفي الزقاق راح
يتأمله ثانية على ضوء النهار • • ويتفحصه جيدا على نورالشمس
الساطعة • فإذا به وردة حمراء • كانت فيما مضى تروح وتجيء
على كتف كالببلور • • فابتسم • • وضحك • • وظل يضحك
وهو واقف • • ويضحك أيضا وهو يسير • • الى أن بلغ سلاالم
السبيل فراح يهبط درجاتها • على مهل • درجة درجة وهو
يضحك • • يهبط درجة ثم يضحك • • ويهبط درجة • • ثم
يضحك • • ويهبط درجة • • ثم • • يضحك •

تمت

مؤسسة
الدراسات والبحوث

٨٩ شارع النسيم العتيق. القاهرة

36
9sh



0617207

الثنى + ١ قروش